الباب الثانى عشر

اليهـــود

الفصل الأول

الأرض الموعودة

فلسطين — مناخها — عهد ما قبل التاريخ — شعب إبراهيم —
اليهود فى مصر — الخروج — فتح كنعان

وُسع كاتب مثل بكل Buckle أو منتسكيو يريد أن يفسر تاريخ الأمة بالرجوع إلى موقع بلادها أن يجد ما يؤيد أقواله فى فلسطين . إن بلاداً يبلغ طولها من دَانْ الشمال إلى بير سبع فى الجنوب نحو مائة وخمسين ميلا ، ويتراوح عرضها من مساكن الفلسطينيين فى الغرب ومساكن السوريين والآراميين والعمونيين ، والمؤابيين والإدميين فى الشرق بين خمسة وعشرين وثمانين ميلا — إن بلاداً ضيقة الرقعة إلى هذا الحد لايتوقع الإنسان أن يكون لها شأن فى التاريخ ، أو أن تخلف وراءها أثراً أعظم مما خلفته بلاد بابل أو أشور أو فارس ، بل لعله أعظم مما خلفته مصر أو بلاد اليونان . ولكن كان من سوء حظ فلسطين أو من سوء حظها أن تقع بين عواصم النيل وعواصم دجلة والفرات . وهذا الموقع قد جاء إلى بلاد اليهود بالتجارة كما جاءها بالحرب ؛ وكم من مرة ضيق على اليهود فلم يجدوا مخرجاً من ضيقهم إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين فى الصراع القائم بين الإمبراطوريات الكبرى ، أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون وكم من مرة اجتاح المصطرعون بلادهم ، وكان من وراء التوراة ، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والأنبياء وعويلهم وطلبهم الغوث من

ربّ السماء ، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذى تتهده الأخطار ، بين شتى الرحى ، من فوقهم دوّل أرض الجزيرة ومن تحتهم مصر .

ويحدثنا تاريخ الأرض المناخى مرة أخرى أن صِرح الحضارة صِرح مزعزع ، وأن عدوّيها الألدّين — الهمجية والجدب — يترصدانها ليقضيا عليها . لقد كانت فلسطين فى يوم من الأيام « أرضاً تفيض لبناً وعسلا » كما تصفها كثير من الفقرات فى أسفار موسى الخمسة[١] ، وكان يوسفوس فى القرن الأول بعد المسيح لا يزال يقول عن فلسطين وأهلها إن بها من « الأمطار ما يكفى حاجة الزراعة ، وإنها جميلة ، وإن بها كثيراً من الأشجار ، وإنها مملوءة بفاكهة الخريف البرى منها والمنزرع ... وإن هذه الأشجار لا ترويها الأنهار ريًّا طبيعياً ولكنها تنال ما تحتاج إليه من الرطوبة من ماء المطر الذى لا ينقطع عنها قط »[٢] . وكانت أمطار الربيع التى تسقى الأرض تخزن الأيام الخالية فى صهاريج أو ترفع إلى سطح الأرض مرة أخرى من آبار كثيرة العدد ، وتوزع فى أنحاء البلاد فى شبكة من القنوات ؛ وكان ذلك هو الأساس المادى للحضارة اليهودية . وكانت الأرض التى تروى بهذه الطريقة تنتج الشعير والقمح والذرة ، وتجود فيها الكروم ، وتثمر أشجارها الزيتون والتين والبلح وغيرها من الفواكه على منحدرات الجبال جميعها ؛ فإذا داهمتها الحروب وخربت حقولها التى أخصبتها الصناعة ، أو جاءها فاتح فأخرج منها إلى بلاد نائية الأسر التى كانت تعنى بهذه الحقول ، زحفت الصحراء عليها فأفسدت فى بضع سنين ما أصحته الأيدى العاملة فى أجيال . وليس لنا أن نحكم على جدب أرض فلسطين بما نشاهده فيها الآن من فياف مقفرة ، وواحات قليلة ضئيلة ، تواجه اليهود الذين عادوا الآن إلى تلك البلاد بعد ثمانية عشر قرناً من النفى والعذاب والتشريد .

والتاريخ فى فلسطين أقدم مما كان يظنه الأسقف أسشر Ussher ، فقد

كشفت بقايا نيندرتالية قرب بحر الجليل ، كما كشفت خمسة هياكل عظيمة نيندرتالية فى كهف قرب حيفا . وليس ببعيد أن تكون الثقافة المُسْتِيرية التى ازدهرت فى أوربا حوالى ٤٠٫٠٠٠ قبل الميلاد قد امتدت إلى فلسطين . فقد كشفت فى أريحا(*) أرض حجرات ومواقد من مخلفات العصر الحجرى الجديد ، وهى ترجع بتاريخ هذا الإقليم إلى عصر برنزى متوسط (٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق . م) جمعت فيه مدن فلسطين وسوريا من الثروة ما أغرى مصر بفتحها . وكانت أريحا فى إبان القرن العشرين قبل الميلاد مدينة مسورة يحكمها ملوك يعترفون بسيادة مصر عليها . وقد وجدت فى قبور هؤلاء الملوك التى كشفتها بعثة جارستانج Oarstang مئات من المزهريات والهدايا الجنازية وغيرها من الأدوات التى تدل على وجود حياة مستقرة فى تلك المدينة وقت سيطرة الهكسوس على مصر ، وعلى وجود حضارة لا بأس بها فى أيام حتشپسوت وتحتمس الثالث(٣) . ويبدو من هذا الكشف وأمثاله أن الأزمنة المختلفة التى تبدأ بها تواريخ الشعوب فى ظننا إن دلت على شىء فإنما تدل على جهلنا ؛ وتدل ألواح تل العمارنة على أن الحياة فى فلسطين وسوريا بالصورة التى تطالعنا فى بداية تاريخ اليهود ترجع إلى قرب دخولهم فى وادى النيل . ومن المرجح — وإن لم يكن من المؤكد — أن « الخبيرو » الذين تتحدث عنهم هذه الألواح كانوا عبرانيين(٤)(**) .

(*) Jecrico

(**) لقد أعادت الكشوف التى ذكرناها فى هذا الفصل كثيراً من الثقة إلى فصول سفر التكوين التى تقص تاريخ اليهود القديم . وإذا ما استثنينا من قصة اليهود ، كما تميط عنها اللثام أسفار العهد القديم ، حوادث المعجزات وخوارق العادات وأشباهها ، رأينا أن هذه القصة قد صمدت للنقد والبحوث التاريخية . وكل عام يمر يكشف فيه من الوثائق والآثار ما يؤيد أقوال العهد القديم . من ذلك القطع الخزفيـــة التى استخرجت من تل الدوير فى عام ١٩٣٥ تحمر من النقوش العبرية ما يؤيد أجزاء من قصة سفرى الملوك(٤أ) : وعلى هذا فإن من حقنا أن نقبل قصص التوراة مؤقتا حتى نجد ما ينقضها . انظر كتاب بترى « مصر وإسرائيل Egypt & Israel » طبعة لندن ١٩٢٥ ص ١٠٨ .

ويعتقد اليهود أن شعب إبراهيم (أو أبراهام) جاءوا من أور فى بلاد سومر(٥) واستقروا فى فلسطين (حوالى ٢٢٠٠ ق . م) أى قبل موسى بنحو ألف عام أو أكثر ؛ وأن انتصارهم على الكنعانيين لم يكن إلا استيلاء العبرانيين على الأرض التى وعدهم بها الله . والراجح أن أمرافَل الذى يقول عنه سفر التكوين (١٤ : ١) إنه « ملك شنغار فى تلك الأيام » كان هو أمرپال والد حمورابى الذى كان يجلس قبله على عرش بابل(٦) . ولم تصل إلينا من مصادر معاصرة إشارات مباشرة إلى خروج بنى إسرائيل من مصر أو إلى هزيمة الكنعانيين(٧) . وكل ما وصلنا من إشارات غير مباشرة هو ما كتب على اللوحة التى أقامها منفتاح (حوالى ١٢٢٥ ق . م والتى وردت فيها هذه العبارة :

لقد غُلب الملوك وقالوا « سلاماً ! » .

وخربت تحينو .

وهدئت أرض الحثيين ،

وانتهت كنعان ، وحلَّت بها كل الشرور ، . . .

وخربت إسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود ؛

وأضحت فلسطين أرملة لمصر ،

وضمت كل البلاد . وهدئت ؛

وكل من كان ثائراً قيَّده الملك منفتاح .

وليس فى هذه الأقوال ما يدل على أن منفتاح هو فرعون الذى خرج بنو إسرائيل من مصر فى عهده ؛ وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى . ولسنا ندرى متى دخل اليهود مصر ، وهل دخلوها أحراراً أو عبيداً(٨)(*) . ولربما كان من حقنا أن نرجح أن من هاجروا منهم إلى مصر

(*) لعلهم جاءوا مصر فى أثر الهكسوس ، ولعل سيطرة هؤلاء الساميين على مصر قد أتاحت لهم بعض الحماية(٩) . ويرجع بترى تاريخ دخولهم مصر إلى عام ١٦٥٠ ق . م ، =

كانوا فى بداية الأمر قليلى العدد[١١] ، وأن وجود الآلاف المؤلفة منهم فى مصر أيام موسى كان نتيجة لكثرة تناسلهم ، وأن شأنهم فى ذلك الوقت كان كشأنهم فى جميع العصور ، فقد كان « عددهم يتضاعف وينمو كلما زاد اضطهادهم وتعذيبهم »[١٢] . وإن قصة « استعباد اليهود فى مصر ، وتسخيرهم فى أعمال البناء الضخمة ، وتمردهم ، وهربهم — أو هجرتهم — إلى آسية لتحمل فى ثناياها أدلة كثيرة على صدقها ، وإن اختلط بها بطبيعة الحال كثير من الأقوال الغريبة وخوارق العادات

شكل (٣٥) شارع فى القدس الحديثة

كما يحدث عادة فى جميع الكتابات التاريخية فى الشرق القديم .

= وتاريخ خروجهم منها إلى عام ٢٢٠ ق . م[١٠] ، وهو يعتمد فى ذلك على ما ورد فى التوراة من أن اليهود أقاموا فى أرض مصر أربعمائة وثلاثين عاما .

تنبيه : رأينا فى هذا الباب أن ننقل العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس بنصها لا أن نترجمها عن الأصل الإنجليزى . (المترجم)

وحتى قصة موسى نفسها يجب ألا نتعجل فنرفضها من غير بحث وتحقيق ، وإن كان العجيب حقاً أنه لم يرد له ذكر على لسان عاموس أو إشعيا ، وهما اللذان سبقت خطبتهما تأليف أسفار موسى الخمسة بنحو قرن من الزمان(*) .

ولما سار موسى باليهود إلى جبل سيناء ، لم يكن فى سيره هذا إلا متبعاً نفس الطريق الذى كانت تسلكه البعثات المصرية التى تبحث عن الفيروز منذ ألف عام . وتبدو الآن قصة الأربعين عاماً التى تاهوا فيها فى الصحراء ، والتى كان يظن من قبل أنها قصة غير معقولة ، تبدو الآن من الأمور التى يقبلها العقل ، لأنها تصف مسير قوم من البـــدو الذين كانوا طوال عهـــدهم قوماً رحّلا ، كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلا آخر لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين . وقتل المهاجمون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هـــذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس « فريضـــة الشريعة التى أمر بها الربُّ موسى » .

(*) ينقل يوسفوس عن مانيثون – وهو مؤرخ مصرى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد – قوله إن سبب خروج بنى إسرائيل من مصر وهو رغبة المصريين فى أن يتقوا شر وباء فشا بين اليهود المستعبدين المملقين ، وقوله إن موسى نفسه كان كاهناً مصريا خرج للتبشير بين اليهود « المجذومين » ، وإنه علمهم قواعد للنظافة على نسق القواعد المتبعة عند كهنة المصريين(١٣). ويفسر المؤرخون اليونان والرومان قصة الخروج هذا التفسير(١٤) ، ولكن نزعتهم المعادية للسامية تجعلنا قليلى الثقة بأقوالهم . وفى التوراة آية تؤيد قول وارد **Ward** إن الخروج لم يكن إلا إضراباً عن العمل . وهذه هى الآية المشار إليها : « فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تبطلان الشعب من أعماله إذهبا إلى أشغالكما(١٥) » .

وموسى اسم مصرى لا اسم يهودى ؛ ولعله اختصار للفظ حوس(١٦) . ويقول الأستاذ جارستانج عضو بعثة مارستن **Marston** التابعة لجامعة ليفربول إنه كشف فى مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجبته (فى عام ١٥٢٧ ق . م بالتحقيق) الأميرة حتشبسوت الملكة حتشبسوت فيما بعد) وأنه تربى فى بلاطها بين حاشيتها ، وإنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث(١٧) . هو يعتقد كذلك أن الملفات التى وجدت فى هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا (يشوع ٦) . ويرجع سقوطها إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق . م كما يرجع الخروج إلى عام ١٤٤٧ ق . م(١٨) . ولما كانت هذه التواريخ لا تعتمد إلا على ما ورد منقوشا على الجعلان والخزف ، فإن من واجبنا أن نأخذها بالشك المقرون بالاهتمام .

و « زكاة للارب »[١٩] . ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلهما ١٢ر٠٠٠ رجل : ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة فى تعداد القتلى إلا فى تاريخ الأشوريين ، ويقال لنا « إن الأرض استراحت من الحروب أحياناً »[٢٠] فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة ، أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فظاً ، وقد حكم موسى حكماً سلمياً لم تسفك فيه دماء ، وذلك بما كان يقضى به من أحاديث جرت بينه وبين الإله ، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثانى ، وهو أن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حياً . وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة .

الفصل الثانى

سليمان فى ذروة مجده

أصل اليهود — مظهرهم — لغتهم — نظامهم — القضاة والملوك —
شاؤل — داود — سليمان — ثروته — الهيكل —
نشأة المشكلة الاجتماعية فى إسرائيل

كل ما نستطيع أن نقوله عن أصل اليهود من ناحية جنسهم هو ذلك القول الغامض ، وهو أنهم ساميون لا يتميزون تميزاً واضحاً ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميين سكان آسية الغربية ، وأنهم لم يوجدوا تاريخهم ، بل إن تاريخهم هو الذى أوجدهم . وإنا لنراهم من بداية ظهورهم خليطاً من سلالات كثيرة — والحق أن وجود جنس « نقى » فى الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التى تتلاطم فيه أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاقل . على أن اليهود كانوا أتقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية ، لأنهم لم يتزوجوا بغيرهم من الأجناس إلا كارهين . ومن أجل هذا حافظوا على جنسهم ، واستمسكوا به استمساكاً عجيباً . فالأسرى العبرانيون الذين نرى صورهم فى النقوش المصرية والأشورية يشبهون كل الشبه يهود هذه الأيام رغم تحامل الفنانين وتحيزهم . ففى هذه النقوش نرى الأنف الحنى الطويل الأقنى(*) ، والوجنتين البارزتين ، وشعر الرأس واللحية المتلوى ، وإن كنا لا نرى فى الرسوم المصرية الهزلية الأجسام الضامرة القوية ، والأرواح الخبيثة العنيدة التى امتاز بها الساميون من عهد أتباع موسى « صلب الرقاب » إلى بدو هذه الأيام وتجارها الذين لا يسبر لهم غور ، وكانوا فى أيام فتوحهم الأولى يرتدون جلابيب بسيطة ، وقبعات وطيئة

(*) انظر ص ٣٠٣ من هذا الكتاب .

أو قلانس شبيهة بالعمائم ، ويحتذون أخفافاً سهلة الخلع . ولما أن زادت ثروتهم استبدلوا بالأخفاف أحذية من الجلد وارتدوا فوق الجلابيب قفاطين ذات أهداب . أما نساؤهم — وهن من أجمل نساء الأمم القديمة — فكن يصبغن خدودهن ويكتحلن ويتحلين بكل ما يجدن من الحلى ، ويلبسن أحسن الأزياء وأحدثها فى بابل ونينوى ودمشق وصور(٢١) .

وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الطنانة الرنانة على ظهر الأرض ، ألفاظها مليئة بالأنغام الموسيقية القوية رغم ما فيها من حروف حلقية . وقد وصفها رينان بقوله : إنها « كنانة مليئة بالسهام ، وأبواق نحاسية تدوى فى الهواء »(٢٢) . ولم تكن تختلف كثيراً عن لغة الفينيقيين أو الموآبيين . وكان اليهود يكتبون بحروف هجائية وثيقة الصلة بالحروف الفينيقية(٢٣) . ويعتقد بعض العلماء أنها أقدم ما عرف من الحروف(٢٣) . ولم يشغلوا أنفسهم بإضافة الحركات إلى الحروف ، بل تركوها للقارئ يستخرجها من معنى العبارة ، ولا تزال الحركات العبرية إلى اليـــوم مجرد علامات تزدان بها الحروف .

ولم تتألف من الغزاة فى يوم من الأيام أمة موحدة متماسكة ، بل ظلوا زمناً طويلا يؤلفون اثنى عشر سبطاً مستقلين استقلالا واسعاً أو ضيقاً ، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة ، بل على أساس الحكم الأبوى فى الأسرة . فكان شيوخ العشائر يجتمعون فى مجالس من الكبراء هو الحكم الفصل فى شئون القبيلة ، وهو الذى يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى إذا ألجأتهم إلى هـــذا التعاون الظروف القاهرة التى لا مفر من التعاون فيها . وكانت الأسرة هى الوحدة الاقتصادية التى يقوم عليها زرع الأرض ورعى قطعان الضأن وكانت مكانتها هذه مصدر قوتها ونفاذ كلمتها ، وسلطانها السياسى . وكان فى الأسرة قسط من الشيوعية يخفف بعض الشىء من صرامة النظام الأبوى ، وهو الذى أوحى إلى الشعب بذكريات كان الأنبياء يرجعون إليها وهم محزونون حين غلبت على البلاد النزعة الفردية .

وذلك أنه حين دخلت الصناعة مدن اليهود وجعلت الفرد هو الوحدة الاقتصادية فى الإنتاج ، ضعف سلطان الأسرة كما ضعف فى هذه الأيام ، واضمحل النظام الفطرى الذى كانت تقوم عليه الحياة اليهودية .

ولم يكن « القضاة » ، وهم الذين كانت القبائل جمعاء تطيعهم فى بعض الحالات ، موظفين عموميين ، بل كانوا زعماء عشائر أو رجال حرب — حتى إذا كانوا من الكهنة(٢٤) . « ولم يكن فى إسرائيل ملوك فى تلك الأيام ، بل كان كل إنسان يفعل ما يراه هو حقاً »(٢٥) ؛ غير أن هـذا النظام « الجفرسونى »(*) غير المعقول — إن صح أنه كان قائماً بالفعل — قد انهار أمام مطالب الحرب الملحة ، وكان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملا هاماً فى جمع الأسباط كلهم فى وحدة شاملة مؤقتة ، وحملهم على تعيين ملك ذى سلطان دائم عليهم ، وقد حذرهم النبى صمويل من بعض الأضرار التى تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد فقال :

« وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يحكم عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم وزيوتكم أجودها ويعطيها لعبيده ، ويعشر زرعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشياتكم الحسان وحميركم ويستعملها لشـــغله ، ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً ، فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم ، فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صمويل وقالوا لا بل يكون علينا ملك ، فنكون نحن

(*) أى الشبيه بالنظام الذى كان يدعو إليه توماس چفرسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة ١٧٤٨ — ١٨٢٦ . (المترجم)

أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويحارب حروبنا[٢٦] » .

وعلمهم ملكهم الأول شاول الخير والشر بأعماله ؛ فحارب حروبهم بشجاعة ، وعاش عيشة بسيطة من موارد مزرعته فى جلعاد ، وأخذ يطارد الشاب داود ليقتله ، وقُطع رأسه فى أثناء فراره من الفلسطينيين . وسرعان ما عرف اليهود من بداية الأمر أن حروب الوراثة من مستلزمات الملكية . وإذا لم تكن ملحمة شاول ويوناثان وداود الصغيرة قصة موضوعة من روائع الأدب(*) (لأنا لا نجد ذكراً لهذه الشخصيات فى غير التوراة) فإن مليكهم الأول هذا قد خلفه ، بعد فترة من الاضطرابات الدموية ، داود الشجاع قاتل جالوت ، وحبيب يوناثان وكثير من الفتيات الذى يرقص بكل قوته وهو نصف عارٍ[٢٨] ، ويجيد الضرب على القيثار ، ويغنى أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ملك اليهود القدير الذى ساسهم نحو أربعين عاماً . وقد استطاع الأدب فى ذلك العصر البعيد أن يرسم له صورة كاملة ، صورة واقعية فيها كل ما فى النفس الحية من عواطف وانفعالات متعارضة ، فهو قاس غليظ القلب كما كان الناس فى وقته وكما كانت قبيلته ، وكما كانت الصفات التى خلعها على إلهه ، ولكنه مع هذا كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الأشوريين ، ويأمر ابنه سليمان أن « يحد بالدم إلى الهاوية » شيبة شمعى بن جيرا الذى لعنه منذ سنين كثيرة[٢٩] ، ويأخذ امرأة أوريه الحثى بين نسائه فى غير حياء ، ويرسل أوريه إلى الصف الأول فى ميدان القتال ليتخلص منه[٣٠] ويقبل زجر ناثان له فى ذلة ، ولكنه مع ذلك يحتفظ ببشبع الجميلة ، ويعفو عن صمويل مرات تكاد تبلغ أربعمائة وتسعين ، ولا يسلبه إلا درعه حين كان فى مقدوره أن يسلبه حياته وينجى مفيبوشت(**) ويعينه ،

(*) كقصة شمشون الظريفة الذى حرق حاصلات الفلسطينيين بأن أطلق عليهم ثلثمائة ثعلب ربطت المشاعل فى أذيالها ، والذى قتل ألف رجل بعظم من فك حمار[٢٧] .

(**) انظر صمويل الثانى ٤ : ٤ .

وهو الذى قد يكون من المطالبين بالعرش ، ويعفو عن ابنه العاق أبشالوم بعد أن قبض عليه فى ثورة مسلحة ، ويحزن أشد الحزن على موت ابنه هذا فى واقعة حربية حارب فيها جيوش أبيه : « يا ابنى أبشالوم ، يا ابنى أبشالوم ، يا ليتنى مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابنى ، يا ابنى »(٣١) . ذلك وصف رجل حقيقى لا رجل خيالى ، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة ، ينطوى على جميع بقايا الهمجية ، وعلى كل مقومات الحضارة .

ولما ورث سليمان العرش قتل جميع منافسيه فى الملك ليستريح من متاعبهم ، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه الذى أحب الملك الشاب فوهبه حكمة لم يهبها أحداً من قبله ولا من بعده(٣٢) . ولعل سليمان خليق بما نال من شهرة ؛ ذلك أنه لم يكفه أن يستمتع فى حيـاته بكل نعيم ولذة وأن يقوم بجميع ما يفرضه عليه المُلك من واجبات ، بل إنه علم شعبه فضل القانون والنظام(*) ، وما زال بهم حتى أقنعهم بنبذ الشقاق والحرب والالتفات إلى الصناعة والسلم . وكان عهد سليمان عهد سلام بحق(**) فنى حكمه الطويل أفادت أورشليم ، التى اتخذها داود عاصمة له ، من هذه السلم التى لم تألفها من قبل فزادت ثروتها وضاعفتها . وكانت المدينة(†) قد أقيمت فى بادئ الأمر حول بئر ، ثم حولت إلى حصن لأنها كانت على ربوة فوق السهل ، وأصبحت فى أيام سليمان من أنشط الأسواق التجارية فى الشرق الأدنى وإن لم تكن على الطرق التجارية الكبرى . وحافظ سليمان على ما أنشأه داود من صلات ودية مع حيرام ملك صور ، وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم التجارية داخل أرض فلسطين ، وازدهرت فى أيامه تجارة رابحة قوامها استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات إسرائيل الزراعية . وأنشأ أسطولا تجارياً فى البحر

(*) « وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفاً وخمساً »(٣٣) .

(**) اسمه مشتق من شالوم ومعناه السلم .

(†) سميت فى ألواح تل العمارنة باسم أور سلموا وأروو سالم .

الأحمر ، وأغرى حيرام على أن يستخدم هذا الطريق الجديد بدل طريق مصر فى تجارته مع بلاد العرب وأفريقية(٣٤) . والراجح أن جزيرة العرب هى التى استخرج سليمان منها الذهب وحجارة « أوفير» الكريمة(٣٥) ، ومن بلاد العرب جاءت إليه ملكة « سبأ » تخطب وده ، ولعلها جاءت أيضاً لتطلب معونته(٣٦) . وكان « وزن الذهب الذى أتى سليمان فى سنة واحدة ستمائة وستا وستين وزنة ذهباً »(٣٧) ومع أنه لا وجه للموازنة بين هذا القدر وبين موارد بابل أو نينوى أو صور فإنه جعل سليمان من أغنى ملوك زمانه(*) .

واستخدم بعض هذه الثروة فى ملاذه الشخصية ، وأخص ما استخدمها فيه إشباع شهواته فى جمع السرارى — وإن كان المؤرخون ينقصون « زوجاته السبعمائة وسراريه الثلثمائة إلى ستين وثمانين على التوالى(٣٩) . ولعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية ، أو لعل الباعث له عليها هو نفس الباعث الذى حمل رمسيس الثانى على هذا العمل بعينه ، وهو رغبته فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو. على أن سليمان قد استخدم معظم موارده فى تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته ، ومن أعماله فيها ترميم الحصن الذى أقيمت حوله . وقد أقام فيها كثيراً من الحصون ، ووضع حاميات فى المواضع ذات الأهمية العسكرية فى مملكته ، ليرهب بها الغازين والثائرين على السواء . وقسّم بلاده اثنى عشر قسما إدارياً ، وتعمّد أن تكون

(*) انظر ما قلناه قبل فى ص ٢٠٤ لمعرفة قيمة الوزنة فى الشرق الأدنى . على أن هذه القيمة كانت تختلف من وقت إلى آخر ، ولكننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن الوزنة فى أيام سليمان كانت لها قيمة شرائية تعادل قيمة ١٠٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام . وأكبر الظن أن الكاتب العبرى كان وهو يكتب هذا أديبا ، لا مؤرخا يتوخى الحقائق الدقيقة ، ولذلك فإن من واجبنا ألا نأخذ أقواله على علاتها . وإذا شاء القارئ أن يعرف شيئاً عن تقلبات العملة اليهودية فى تلك الأيام الخالية ، فليقرأ « دائرة المعارف اليهودية » فى موضوعات « المسكوكات » و « الشاقل » . ولا تظهر النقود الحقيقية — لا الحلقات ، والسبائك الذهبية والفضية فى فلسطين إلا حوالى عام ٦٥٠ ق . م(٣٨) .

حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثنى عشر ، وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم ، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً : ولكنه أفلس فى هذا وأفلست بلاد اليهود معه . ومن الوسائل التى استخدمها لتمويل حكومته إعداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة ، ولاستيراد مواد الترف والسلع القيّمة النادرة ، ومن بينها « العاج والقردة والطواويس »(٥٠) — وهذه كان يمكن بيعها للأثرياء المحدثين بأثمان غاليـــة . وكان يفرض الإتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين . وقد فرض جزية الرؤوس على جميع رعاياه ، وطالب كل قسم من أقسام دولته ما عدا قسمه الخاص بقدر من المال ، وأعاد للدولة احتكارها القديم لتجارة الخيوط والخيل والمركبات(٤١) . ويؤكد لنا يوسيفوس أن سليمان جعل الفضة فى أورشليم كحجارة الشوارع فى كثرتها(٤٢) ، واعتزم أخيراً أن يزين المدينة بمعبد جديد ليهوه ، وبقصر جديد له هو نفسه .

وفى وسعنا أن نستشف ما كان فى الحياة اليهودية من اضطراب حين نذكر أن بلاد اليهود كلها حتى أورشليم نفسها لم يكن فيها قبل أيام سليمان هيكل كبير واحد على ما يظهر . وكان الأهلون يقرّبون القرابين ليهوه فى هياكل محلية أو فى هياكل ساذجة فوق التلال(٤٣) . ثم جمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلن إليهم عزمه على تشييد هيكل وخصه بكميات كبيرة من الذهب والفضة والشبّة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة ، وأوحى إلى الناس فى رفق أن الهيكل يرحب بتبرعات المواطنين . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال ناقل الرواية فإنهم تبرعوا له بخمسة آلاف وزنة من الذهب ، وبضعفيها من الفضة ، وبكل ما يحتاج إليه من الحديد والشبّة . « ومن وجد عنده حجارة أعطاها لخزينة بيت الرب »(٤٤) . واختير لتشييده مكان فوق ربوة ، وقامت جدران الهيكل كأنها امتداد للمنحدرات الصخرية(*) . وكان طرازه هو الطراز

(*) ليس ببعيد أن يكون مكان الهيكل هو المكان الذى يشغله الآن الحرم الشريف =

الذى أخذه الفينيقيون عن مصر ، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الأشوريين والبابليين من ضروب التزيين . ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح ، بل كان سياجاً مربعاً يضم عدة أجنحة . ولم يكن بناؤه الرئيسى كبير الحجم — فقد كان طوله حوالى مائة وأربع وعشرين قدماً ، وعرضه حوالى خمس وخمسين ، وارتفاعه اثنتين وخمسين ، أى أنه كان فى نصف طول البارثنون(٤٦) .

وكان العبرانيون الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد اليهودية ليعملوا فى إقامة

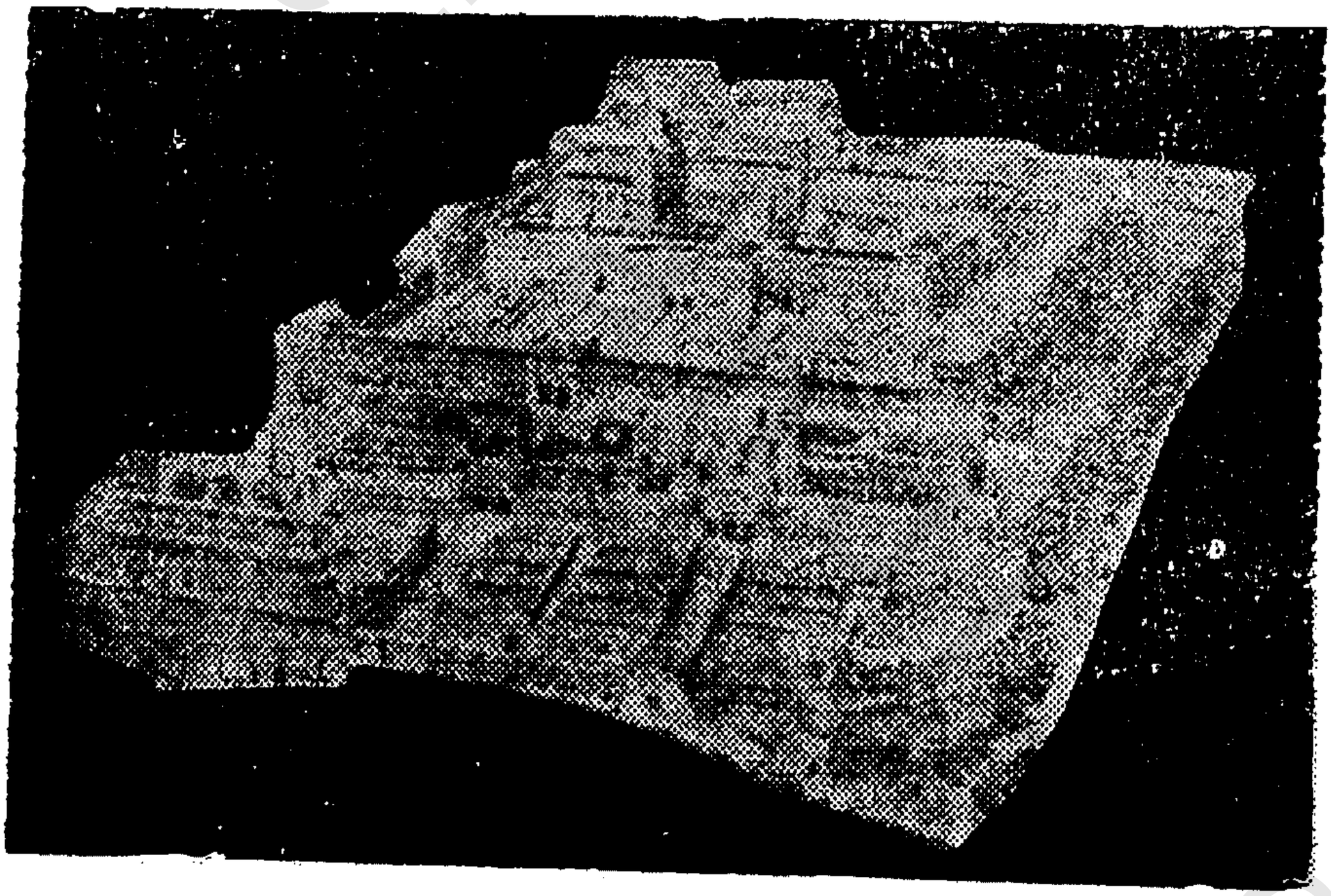

شكل (٣٦) صورة مستعادة لهيكل سليمان

الهيكل ، وليتعبدوا بعدئذ فيه — كان هؤلاء العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب العالم . ومن حقهم علينا ألا نلومهم على هذا الاعتقاد ، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً ،

— فى المسجد الأقصى ، ولكن سائر أجزاء الهيكل لم يبق منها شىء على الإطلاق(٤٥) .

وكان فى صدر البناء الرئيسى « مدخل » كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدماً ، مرصع بالذهب . وكان الذهب فضلا عن هذا يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل — إذا جاز لنا أن نصدق المصدر الوحيد الذى نعتمد عليه فى هذا الوصف — : على سقف البناء الرئيسى ، والعمد ، والأبواب والجدران ، والثريات ، والمصابيح ، ومقصات الفتائل ، والملاعق ، والمباخر ؛ وكان فيه « مائة حوض من الذهب » . وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه ، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد(٤٧) .

وشيدت الجدران من حجارة كبيرة مربعة ، أما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش . وجىء بمعظم مواد البناء من فينيقية ، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صناع من صيدا وصور(٤٨) . أما الأعمال التى لا تحتاج إلى شىء من المهارة فقد حشد لها ١٥٠,٠٠٠ عامل سخروا فيها تسخيراً بلا شفقة ولا رحمة ، كما كانت العادة المألوفة فى تلك الأيام(٤٩) .

« ومضت سبع سنين والعمل فى تشييد البناء قائم على قدم وساق ، ليكون مقراً فخما ليهوه مدى أربعة قرون . ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً أخرى ليشيدوا صرحاً أكبر من الهيكل يسكن فيه سليمان ونساؤه . وكان جناح واحد من أجنحته وهو — « بيت وعمر لبنان » أربعة أضعاف مساحة الهيكل كله(٥٠) . وكانت جدران البناء الرئيسى فى القصر مقامة من كتل من الحجارة الضخمة طول الواحدة منها خمس عشرة قدماً ، وكانت تزينه التماثيل المنحوتة ، والنقوش المحفورة ، والصور المرسومة على الطراز الأشورى . وكان القصر يحتوى على أبهاء يستقبل فيها الملك كبار زائريه ، وعلى أجنحة للملك نفسه ، ومساكن للمحظوظات من زوجاته ، ومستودع للسلاح كان هو العماد الأخير لحكومته . على أن هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد ، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق(٥١) .

ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به ، وأخذت عنايته بالدين تقل على مر الأيام ، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل . ولشد ما يلومه كُتّاب أسفار التوراة على شهامته إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية التى كانت تعبدها زوجاته الأجنبيات ، ولا تطاوعهم أنفسهم على أن يصفحوا عنه لعدله الفلسفى — أو لعله السياسى — بين مختلف الآلهة . وأعجب الشعب بحكمته ، ولكنه شعر بما فى حُكمه من مركزية شديدة . وكان بناء الهيكل والقصر قد كلف الناس كثيراً من الذهب والدماء . ولم يكن حبهم لهما أكثر من حب عمال مصر لأهرامها . هذا إلى أن الإنفاق على الهيكل والقصر كان يتطلب فرض ضرائب باهظة ، ولم نعهد قط أن حكومة من الحكومات استطاعت أن تجعل الضرائب من الواجبات المحببة إلى الشعب : فلما مات سليمان كانت موارد إسرائيل قد نضبت . ونشأت فيها طائفة من العمال الصعاليك لا يجدون عملا دائماً يرتزقون منه ، فكان ما قاسوه من العذاب هو الذى حول دين يهوه الحربى إلى دين أنبيائهم الذى لا يكاد يفترق عن الاشتراكية فى كثير أو قليل .

الفصل الثالث

رب الجنود

عدد الآلهة — يهوه — عقيدة الإله الأعظم — خصائص الدين اليهودى —
فكرة الخطيئة — القربان — الختان — الكهنوت — آلهة عجيبة

كان بناء الهيكل أهم الحادثات الكبرى فى ملحمة اليهود ، بعد نشر كتاب القانون ؛ ذلك أن هذا الهيكل لم يكن بيتا ليهوه فحسب بل كان أيضاً مركزاً روحياً لليهود ، وعاصمة للكهنة ، ووسيلة لنقل تراثهم ، وذكرى لهم ، كأنه علم من نار يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض . ولقد كان له فوق ذلك شأن فى رفع الدين اليهودى من دين بدائى، متعدد الآلهة إلى عقيدة راسخة غير متسامحة ، ولكنها مع ذلك إحدى العقائد المبدعة فى تاريخ البشر .

وكان اليهود فى ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلا يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال(٥٢) . ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ؛ ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا فى مصر ، وظلوا زمناً طويلا يتخذون هذا الحيوان القوى آكل العشب رمزاً لإلههم . وإنا لنقرأ فى سفر الخروج (الأصحاح ٣٢ الآيات ٢٥ — ٢٨) كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبى ، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقاب لهم على عبادة هذا الوثن(*) . وفى تاريخ اليهود

(*) ونجد آثاراً أخرى من عبادة الحيوان بين اليهود الأقدمين فى سفر الملوك الأول فى الأصحاح الثانى عشر الآية الثامنة والعشرين ، وفى حزقيال ٨ : ١٠ ، وقد عبد أخاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد .

الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى . ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التى وجدت فى أقدم آثارهم(٥٤) ومنها الأفعى النحاسية التى صنعها موسى والتى عبدها اليهود فى الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالى ٧٢٠ ق . م)(٥٥) . وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم ، وذلك لأنها رمز للذكورة المخصبة من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود — فضلا عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان(٥٦) .

وكان بعض اليهود يعظمون بَعْل ، الذى كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس ، وذلك لأنه فى رأيهم الجوهر الذكر فى التناسل ، وزوج الأرض الذى يخصبها(٥٧) .

وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت فى عبادة الملائكة والقديسين ، وفى الأصنام الصغيرة المتنقلة التى كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم(٥٨) ، كذلك ظلت المعتقدات السحرية التى كانت منتشرة فى العبادات القديمة ، باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة . ويبدو أن الناس كانوا ينظرون إلى موسى وهرن على أنهما ساحران ، وأنهم كانوا يناصرون السحرة والعرّافين . وكان استطلاع المستقبل يحدث أحياناً برمى النرد (أريم وتميم) من صندوق (إيفود) — وهى طريقة لا تزال تستخدم لمعرفة ما يريده الآلهة . ومما يذكر بالحمد لكهنة اليهود أنهم قاوموا هذه العادات ، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة سحرية واحدة هى قوة القربان والصلوات والتبرعات .

وما لبثت فكرة اتخاذ يهوه إله اليهود القومى الأوحد أن تبلورت وأكسبت الديانة اليهودية وحدة وبساطة كانتا سبباً فى انتشالها من فوضى الشرك التى كانت تسود أرض الجزيرة . ويبدو أن اليهود الفاتحين عمدوا إلى أحد آلهة

كنعان(*) فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلها صارماً ، ذا نزعة حربية ، صعب المراس ، ثم جعلوا لهذه الصفات حدوداً تكاد تبعث الحب فى القلوب . ذلك أن هذا الإله لا يطالب الناس بأن يعتقدوا أنه عالم بكل شىء ؛ وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يُهلك أبناءهم على علم منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين(٦١) ؛ كذلك لا يرى أنه معصوم من الخطأ ، ويرى أن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ؛ ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه أن يكون شاؤل ملكا . وتراه من حين إلى حين شرهاً ، غضوباً ، متعطشاً للدماء ، متقلب الأطوار ، تزوّاً نكداً : « أتراءف على من أتراءف ، وأرحم من أرحم »(٦٢) . وهو يرضى عما استخدمه يعقوب من ختل وخداع فى الانتقام من لابان(٦٣) ، وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الأسقف الذى يندفع فى تيار السياسة . وهو كثير الكلام ، يحب إلقاء الخطب الطوال ؛ وهو حيى لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره(٦٤) . وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شىء كإله اليهود هذا .

ويلوح أنه كان فى بداية الأمر إلها للرعد يسكن الجبال(٦٥) ، ويعبده الناس للسبب الذى كان يجوركى الشاب يؤمن من أجله بالله إذا أرعدت السماء . وحوّل كاتبو أسفار موسى الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة ، إله الرعد هذا إلى إله للحرب ، فأصبح يهوه فى أيديهم القوية إلها للجيوش يدعو للفتح والاستعمار ، يحارب من أجل شعبه بنفس القوة التى كان يحارب بها آلهة الإلياذة . وفى ذلك يقول موسى : « الرب رجل حرب »(٦٦) . ويردد داود صدى هذا القول نفسه فيقول : « الذى يعلّم يدى القتال »(٦٧) . ويعيد يهوه أن

(*) من بين الآثار التى وجدت فى كنعان (عام ١٩٣١) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق . م) عليها اسم إله كنعانى يسمى ياه أو ياهو(٦٠) .

« يطرد الحويين والكنعانيين والحثين » يطردهم : « قليلا ، قليلا »(٦٨) ، « ويزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين » ، ويقول إن الأرض التى فتحها اليهود ملك له وحده(٦٩) . وهو لا يقطع معهم ولا مع أعدائهم عهداً سخيفاً ؛ ويعرف أن الأرض ، حتى الأرض الموعودة نفسها ، لا تنال إلا بحد السيف ولا يحتفظ بها إلا بالسيف ؛ وهو إله حرب لأنه لا بد أن يكون إله حرب ؛ وتمرّ عدة قرون من الهزائم العسكرية والخضوع السياسى ، والتطور الأخلاقى ، حتى يستحيل هذا الإله إلى والد هلل وإلى المسيح . وهو فخور معجب بنفسه كالجندى ، يتقبل الثناء ويشتهيه ، ويحرص على أن يتباهى بقدرته على إغراق المصريين فى البحر : « فيعرف المصريون أنى أنا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه »(٧٠) . وهو يرتكب فى سبيل انتصار شعبه من ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا اشمئزازاً لا يعادله إلا رضاء أخلاق ذلك العصر عنها ، ويأمر شعبه بأن يرتكبوا هم هذه الوحشية ؛ فهو يذبح أمماً بأكملها راضياً مسروراً من عمله رضاء جلفر Oulliver وهو يقاتل من أجل ليليپت Liliput .

ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات موآب ، قال لموسى : « خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم للرب مقابل الشمس »(٧١) ، وتلك هى أخلاق أشور بانيپال وأشور ، وهو يعرض رحمته على الذين يحبونه ويتبعون أوامره ، ولكنه يفعل ما تفعله جراثيم الأوبئة الفتاكة : « أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى »(٧٢) ؛ وهو إله جبار يفكر فى إهلاك اليهود على بكرة أبيهم لأنهم عبدوا العجل الذهبى(*) ؛ ويضطر موسى إلى أن يراجعه حتى يتملك عواطفه . فيقول الرجل لربه : « ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك » ، « فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أن ننقل أقوال المؤلف كما هى وأن ذلك لا يدل على أننا نؤمن بها . (المترجم)

بشعبه »(*) (٧٣) . ثم يريد يهوه أن يفنى اليهود أصلاً وفرعاً لانهم عصوا موسى ، ولكن موسى يستثير فيه عواطفه الطيبة ، ويأمره أن يفكر فيما يقوله الناس عنه إذا سمعوا بفعلته(٧٤) ، وهو يختبر قومه اختباراً قاسياً فيطلب إلى إبراهيم تضحية يا لها من تضحية ؛ ويعلّم إبراهيمُ يهوه ، كما يعلمه موسى ، مبادئ الأخلاق السامية وينصحه ألا يهلك سدوم وعمورة ، إذا وُجد فيهما من الرجال خمسون ، أو أربعون ، أو ثلاثون ، أو عشرون ، أو عشرة صالحون(٧٥) . ولا يزال يغرى إلهه بالرحمة ، ويشرح له كيف يضطر الإنسان إلى أن يعيد تصوير أربابه لتتفق مع تطورات أخلاقه . وإن اللعنات التى يهدد بها يهوه شعبه المختار إذا ما عصاه لجديرة بأن تكون نماذج فى القدح والسب ، ولعلها هى التى أوحت إلى الذين حرقوا الكفرة فى محاكم التفتيش الأسبانية أو حكموا على اسپنوزا بالحرمان أن يفعلوا ما فعلوا :

« ملعوناً تكون فى المدينة وملعوناً تكون فى الحقل . . . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك . . . ملعوناً تكون فى دخولك وملعوناً تكون فى خروجك ، يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعلمه حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتنى ؛ يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . . . الخ يضربك الله بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء ، يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب . . . أيضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب فى سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك »(٧٦) .

ولم يكن يهوه الإله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده ، وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه فى الوصية الأولى من الوصايا العشر

(*) هكذا تصور التوراة إله إسرائيل .

هو أن يقوم مقامه فوق مقام سائر الأرباب : وهو يقر بأنه « إله غيور » ، ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم ، وتكسير أنصابهم(٧٧) وإبادتهم . وقلما كان اليهود قبل إشعيا يفكرون فى أن يهوه إله الأسباط جميعاً ، أو حتى إله العبرانيين جميعاً ، فقد كان للموآبيين إلههم شمش ، وكان نعومى يظن أن لا ضير من آن يظل راعوث على ولائه له(٧٨) . وكان بلزبوب إله عكرون ، وملكرم إله عمون : ذلك أن النزعة الانفصالية التى كانت تتملك نفوس أولئك القوم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية قد أدت بطبيعة الحال إلى ما تستطيع أن تسميه استقلالا دينياً . ويقول موسى فى أغنيته الشهيرة : « من مثلك بين الآلهة يا رب(٧٩) » ويقول سليمان : « إلههنا أعظم من جميع الآلهة » .

ولم يكن جميع اليهود ، اللهم إلا أعظمهم علماً ، يعدون تموز إلهاً حقاً فحسب ، بل إن عبادته فضلا عن هذا كانت فى وقت من الأوقات منتشرة فى بلاد اليهود حتى لقد شكا حزقيال من أن البكاء حزناً على تموز كان يسمع فى الهيكل(٨١) . لقد كان ما بين اليهود من فوارق وما كان لهم من استقلال كافيين لأن تبقى لطوائفهم آلهتهم الخاصة حتى فى زمن إرميا : « على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا » ، ثم يظهر النبى الحزين غضبه على بنى وطنه لأنهم يعبدون بعلا ومولك(٨٢) . فلما أن نشأت الوحدة السياسية فى أيام داود وسليمان ، وتركزت العبادة فى الهيكل بأورشليم ، أخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وأمسى يهوه إله لليهود الأوحد . ولم يخط اليهود نحو التوحيد خطوة غير هذه الخطوة ، وهى أن لليهود إلهاً واحداً يعلو على آلهة غيرهم من البشر ، حتى كان زمن الأنبياء(*) . على أن الديانة العبرانية حتى فى هذه المرحلة اليهودية كانت أقرب

(*) لقد جهر إليشع فى القرن التاسع قبل الميلاد بوجود إله واحد : « هو ذا قد عرفت أنه ليس إله فى كل الأرض إلا فى إسرائيل(٧٣) » . وجدير بنا أن نذكر أن التوحيد حتى فى يومنا هذا إنما هو توحيد نسبى ناقص ، فكما كان اليهود يعبدون إلها قبليا ، فإنا نحن أيضاً =

إلى التوحيد من كل دين آخر قبل عصر الأنبياء إذا استثنينا عبادة الشمس القصيرة الأجل فى عهد إخناتون . لقد كانت اليهودية تسمو كثيراً على غيرها من أديان ذلك الوقت فى عظمتها وسلطانها ، وفى وحدتها الفلسفية ؛ وفيما تنطوى عليه من حماسة أخلاقية ومن أثر فى نفوس أهلها ، وكانت تضارع فى عواطفها وشعريتها شرك البابليين واليونان إن لم تفقه من هاتين الناحيتين .

وهذا الدين القاسى المكتئب لم يتخذ له شيئاً من الطقوس المنمقة الاحتفالات المرحة التى كانت شائعة فى عبادة الآلهة المصرية والبابلية . وكان يغشى التفكير اليهودى بأجمعه شعور بضآلة شأن الإنسان أمام رب قادر يسير طوع أمره . وبقيت عبادة يهوه قروناً كثيرة ديناً قوامه الخوف لا الحب ، والرهبة لا الرغبة ، رغم ما بذله سليمان من جهود لكى يجمل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب . ولسنا ندرى ، إذا رجعنا بذاكرتنا إلى هذا الدين وأمثاله ، هل عادت الأديان على الإنسانية بالسلوى بقدر ما عادت عليها بالفزع . إن الأديان التى تبعث فى النفوس الأمل والحب لا تكون إلا متعة من منع الأمن والنظام ، ولم يكن الأمن والنظام من الصفات التى سادت طويلا بلاد اليهود . أما الحاجة إلى قذف الرعب فى قلوب الشعب ، أو الثائرين من الأنب الخاضعين لسلطانه ، فقد جعلت معظم الأديان البدائية عبادات قوامها الخفاء والرعب .

ولقد كان تابوت العهد المحتوى على ملفات السنن والذى لم يكن يسمح لأحد بأن يمسه ، كان هذا التابوت رمزاً لطبيعة العقائد اليهودية . ولما مد عزّة الصالح يديه إلى التابوت ليمنعه أن يسقط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة « حمى غضب الرب على عزة وضربه الرب هناك لأجل أنه مد يده إلى التابوت فمات هناك أمام الله»(٨٤)

= نعبد إلها أوربيا — أو إلها إنجليزيا أو ألمانيا أو إيطاليا . ولا تمر بنا لحظة واحدة نتواضع فيها قليلا فنذكر أن الملايين الذين يسكنون الهند والصين واليابان — بله سكان الغابات المتفقهين فى دينهم — لا يعترفون بدين آبائنا نحن . ولن يكون للعالم كله إله واحد حتى تربط الآلات الأرض وتؤلف بينها ، وتجعلها وحدة اقتصادية ، وتجمع الأمم كلها فى حكومة واحدة .

وكانت الخطيئة هى الفكرة الأساسية فى الدين اليهودى . ولم يرالعالم شعباً آخر أولع بالفضيلة ولع اليهود — إلا إذا استثنينا طائفة المتطهرين الذين يخيل إلينا أنهم خرجوا من بين أســفار العهد القديم دون أن تمسسهم الكثلكة الطويلة العهد بسوء ، ولما كانت الطبيعة البشرية ضعيفة و « السُنن » معقدة صعبة فلم يكن ثمة مفر من الوقوع فى الخطيئة ؛ وكثيراً ما كانت الروح اليهودية تتلبد بالغيوم لما ينجم عن الخطيئة من سيء العواقب ، كحبس المطر أو تدمير إسرائيل بقضها وقضيضها . ولم يكن فى هذا الدين جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن شيول أو « أرض الظلام » التى تحت الأرض لم تكن تقل هولا عن هذا الجحيم . وكان يأتى فيها الموتى جميعهم الطيب منهم والخبيث ، ولا يستثنى منهم إلا المقربون إلى الله كموسى وأخنوخ وإيليا . على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد فى دينهم شيء عن الخلود ؛ وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا . ولم تدر فكرة البعث فى خلود اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض ، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين . ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية .

وكان يمكن اتقاء الخطيئة ونتائجها بالصلاة والتضحية ، وبدأت التضحية عند الساميين كما بدأت عند « الآريين » بالضحايا البشرية(٨٥) ثم حل الحيوان محل الإنسان فصار يضحى « بأولى ثمرات القطعان » وباكورة الطعام الذى تنتجه الحقول ؛ ثم انتهى الأمر أخيراً بالاكتفاء بالتسبيح والثناء على الله . وكان الاعتقاد السائد فى أول الأمر ألا يؤكل لحم حيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه ، وعُرِض وقتاً ما على الإله(٨٦) . وكانت عملية الختان نفسها من أعمال التضحية ، ولربما كانت بدية لتضحية أخرى أشد منها قسوة يكتفى فيها الإله بأخذ جزء

من كل ، وكان الحيض والولادة ، كالخطيئة ، يدنسان المرأة ويتطلبان تطهيراً ذا مراسم وتقاليد ، وتضحية وصلاة ، على يد الكهنة ، وكانت المحرمات تحيط بالمؤمنين من كل جهاتهم ، كما كانت الخطيئة كامنة في كل شهوة من الشهوات ، وكان لا بد من الهبات للتكفير عن هذه الخطايا ، وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن التكفير عنها بهذه الوسيلة .

ولم يكن أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين بالطريقة الصحيحة أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ . وكان هؤلاء طبقة مغلقة لا يستطيع أحد أن ينتمي إليها إلا أبناء ليفي(*) . ولم يكن من حقهم أن يرثوا مالا(٨٧) ، ولكنهم كانوا معفين من الضرائب وفرضة الرؤوس وسائر الإتاوات على اختلاف أنواعها(٨٨) . وكانوا يأخذون العشور على نتاج الضأن ، وينتفعون بما يبقى في الهيكل من القرابين التي لم تستنفدها الآلهة(٨٩) . ونمت ثروة الكهنة بعد نفي اليهود بنمو المجتمع اليهودي الجديد ؛ وإذ كانت هذه الثروة المقدسة قد أحسن القيام عليها ، فقد جعلت كهنة الهيكل الثاني في دمشق ، كما كان أمثالهم في طيبة وبابل ، أقوى من الملوك أنفسهم .

على أن نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية لم يكفيا لتكرير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ؛ بل ظلت قلل التلال ، والحرائجُ مأوى للآلهة الأجنبية ومشهداً للطقوس الخفية ، وظلت أقلية كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشتروت ، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبي ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية(٩١) ، أو ترغم أطفالها على أن « يجوزوا في النار » من قبيل التضحية(٩٢) ؛ بل إن بعض الملوك أنفسهم مثل سليمان وأهاب كانوا « يتملقون » الآلهة الأجانب . وقام

(*) أحد أبناء يعقوب .

رجال صالحون كإليا وإليشع ينادون بإبطال هذه العادات ، وإن لم يصبحوا بعد كهنة ، وحاولوا أن يهدوا الناس إلى طريق الحق باستقامتهم وحثهم على الاقتداء بهم . ونشأ من هذه الأحوال والبدايات ، ومن انتشار الفاقة واستغلال الأهلين فى إسرائيل ، عظماء الرجال فى الديانة اليهودية ؛ نشأت طائفة الأنبياء المتحمسين ، الذين ظهروا الدين اليهودى ، ورفعوا مقامه ، وهيأوه للغلبة على أديان العالم العربى .

obeikandl.com

الفصل الرابع

المتطرفون الأولون

حرب الطبقات — أصل الأنبياء — عاموس وأورشليم — إشعيا — تنديده بالأغنياء — عقيدة المسيح المنقذ — أثر الأنبياء

لما كان الفقر ينشأ من الغنى ، ولما كان الفقراء لا يعرفون أنهم فقراء إلى حين يبصرون الأغنياء بعيونهم ، فإن حرب الطبقات لم يندلع لهيبها فى إسرائيل إلا بعد أن رأى الناس بأعينهم ثروة سليمان الطائلة .

لقد تعجل سليمان ، كما تعجل بطرس الأكبر ولينين ، حينما أراد أن يحوّل البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية . وقد تطلبت هذه المشروعات الضخمة كثيراً من الكدح ، وفرضت على الشعب أبهظ الضرائب ؛ ولما أن نمّت بعد عشرين عاما من العمل المتواصل ، وُجدت فى أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والفساد الاجتماعى فى فلسطين كما كان أمثالهم فى رومة فيما بعد . وكانت الأحياء القذرة تزداد شيئاً فشيئاً كلما نمت ثروة الأفراد وزاد ترف الحاشية ، وأصبح استقلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع الكبرى والتجار والمرابين الذين أحاطوا بالهيكل حتى قال عاموس إن الملاّك « باعوا البارَّ بالفضة والبائس لأجل نعلين »(٩٣) .

وكانت الثغرة الآخذة فى الاتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام قيام المدنيات الصناعية ، من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين مملكة إفرايم(*) الشمالية وعاصمتها السامرة ، ومملكة يهوذا

(*) كثيراً ما كان أهل هذه المملكة يسمونها مملكة « إسرائيل » ، ولكننا فى هذا الكتاب سنطلق هذا اللفظ الأخير على اليهود جميعهم لا على هذه المملكة وحدها .

الجنوبية وعاصمتها أورشليم . ولمحد الضعف من ذلك الحين يدب بين اليهود لما سرى فى قلوبهم من أحقاد ، وما قام بينهم من نزاع كانت تشتعل بينهم بسببه نيران الحرب العوان . ولم يمض على موت سليمان إلا زمن قليل حتى استولى شيشنق ملك مصر على أورشليم ، وحتى سلّمت له كل ما جمعه سليمان من ذهب بالضرائب التى فرضها على الشعب فى أثناء حكمه الطويل .

وكان هـــذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية ، والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء . ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبرى (نبىّ) أول الأمر من طبقة عاموس وإشـــعيا الجديرة باحترامنا ؛ بل كان بعضهم من المتنبئين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور . ومنهم متعصبون متوحّشون يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموســـيقية الغريبة أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدراويش ، ينطقون فى أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها صحابهم وحياً أوحى إليهم : أى بثها فيهم روح غير روحهم(٩٤) . وقد سخر إرميا حرية لاذعة من « كل رجـــل مجنون ومتنبئ »(٩٥) . وكان منهم من هو ناسك نكد كإيليا ؛ ومنهم كثيرون يعيشـــون فى مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل ، ولكن معظمهم كانت له أملاك خاصة وزوجات(٩٦) . ومن هـــذا الحشد الكبير من الذساك خرج أنبياء بنى إسرائيل وأصبحوا على مرّ الزمن نقدة لعصرهم وشعبهم ثابتين على نقدهم . عارفين بالتبعة الملقاة عليهم ؛ وسياسيين ممتازين يسوسون بلادهم فى الخفاء « أشـــد الناس معارضة للكهنة »(٩٧) . و « ألدهم عـــداء للسامية »(٩٨) ، وكانوا مزيجاً من العرّافين والاشتراكيين . ونخطئ أشد الخطأ إذا عددناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ ؛ لقد كانت نبوءاتهم ، إن صح أن نسميها نبوءات ، مزيجاً من الوعد والوعيد ، أو عبارات دالة على التقى والصلاح ، يحشرونها فى

أقوالهم حشراً(٩٩) ، أو إشارات إلى حوادث بعد وقوعها(١٠٠) ؛ ولم يكن الأنبياء أنفسهم يدّعون أنهم يعلمون من الغيب ما يستطيعون أن ينطقوا به ؛ بل كانوا أشبه الناس بالمعارضين البلغاء فى إحدى الحكومات الدستورية الحديثة ؛ وكانوا من بعض نواحيهم تلستويين(*) . ثائرين على الاستغلال الصناعى والخداع الكهنوتى ؛ خرجوا من أحضان الريف الساذج يصبون اللعنات على ثراء الحواضر الفاسدة .

وقد قال عاموس عن نفسه إنه لم يكن نبياً وإنما كان راعياً ريفياً ساذجاً ، فلما أن ترك قطيعه ليشهد بيت إل ، هاله ما شاهده فيه من تعقد الحياة تعقداً غير طبيعى ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن منافسة مريرة قاتلة ، وقسوة فى استغلال الناس . فلما رأى هذا « وقف بالباب » وأخذ يصب غضبه على ذوى الثراء المنغمسين فى الترف الذين لا يرعون فى الناس عهداً ولا ذمة .

« من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتُم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها . . . ويل للمستريحين فى صهيون ، . . . أنتم . . . المضطجعون على أسرّة من العاج والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولا من وسط الصيرة ، الهذرون مع صوت الرباب ، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود ، الشاربون من كؤوس الخمر ، والذين يدّهنون بأفضل الأدهان . . . كرهت أعيادكم . . . إنى إذا قدّمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى . . . أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع ، وليجرِ الحق كالمياه ، والبر كنهر دائم »(١٠١) .

تلك نغمة جديدة فى آداب العالم . نعم إن عاموس يثلم حد مثاليته ، بما ينطق به إلهه من وعيد كالتيار الجارف لا يستطيع القارئ لكثرته وشدته أن يحاجز نفسه

(*) أى أشبه بتولستوى الفيلسوف الروسى . (المترجم)

عن العطف فى بعض اللحظات على شاربى الخمر ومستمعى الموسيقى . ولكنا هنا نرى الضمير الاجتماعى لأول مرة فى آداب آسية يتخذ صورة محددة واضحة ويفيض على الدين بما يرفعه من دين حفلات وملق إلى دعوة للنيل وحث على مكارم الأخلاق ، وما من شك فى أن إنجيل المسيح يبدأ فى الحقيقة بظهور عاموس(*) .

ويبدو أن نبوءة من أشد نبوآته إيلاماً تحققت وهو لا يزال حيا : « هكذا قال الرب . كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ، هكذا ينتزع بنو إسرائيل الجالسون فى السامرة فى زاوية السرير وعلى دمقس الفراش . . . فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة »(١٠٢)(**) ، وقام نبي آخر حوالى ذلك الوقت نفسه يهدد السامرة بالخراب فى عبارة من تلك العبارات الواضحة المأثورة التى صاغها المترجمون فى عهد الملك جيمس من كنوز التوراة ليرددها الناس فى حديثهم كل يوم . قال هوشع : « إن عجل السامرة يصير كسرءاء ، إنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة »(١٠٤) . وفى عام ٧٣٣ هددت إفرايم وحليفتها سوريا ، مملكة يهوذا الناشئة ، فاستغاثت هذه بأشور . فأغاثتها واستولت على دمشق ، وأخضعت سوريا وصور وفلسطين وأرغمتها على دفع الجزية ، وعرفت ما يبذله اليهود من جهود للحصول على معونة مصر ، فغزت البلاد يهوذا(١٠٥) ، وعجزت عن الاستيلاء على أورشليم ، ثم عادت جيوشها إلى نينوى مثقلة بالغنائم ومعها ٢٠٠ر٠٠٠ من أسرى اليهود ليكونوا عبيداً للأشوريين(١٠٦)

(*) يجدر بالقارئ أن يرجع إلى كتاب « فجر الضمير » لبرستد ليوازن بين ما فيه وبين ما ورد فى هذه الأقوال فإن برستد يرجع بداية هذه الدعوة إلى المصريين الأقدمين . (المترجم)

(**) واضح أنه يشير هنا إلى الحجرة التى بنيت كلها من العاج فى قصر السامرة الذى كان يقيم فيه الملك أخاب مع ملكته إيزابل (حوالى ٨٧٥ — ٨٥٠ ق . م) وقد عثرت بعثة مكتبة هارفرد فى خرائب قصر يعتقد إنه قصر أخاب على عدد من قطع العاج(١٠٣) .

وفى أثناء حصار أورشليم أصبح النبى إشعيا من أعظم شخصيات التاريخ العبرى(*) . وكان إشعيا أوسع أفقاً من عاموس ، ولذلك كانت آراء أولهما أبقى أثراً فى السياسة من آراء الثانى . ولم يكن يشك فى أن يهوذا الصغيرة لا تستطيع الوقوف فى وجه أشور الجبارة ذات السلطان الواسع ولو أعانتها مصر البعيدة — تلك القصبة المرضوضة التى تدمى يد من يحاول أن يمسكها ليدفع بها عن نفسه — فأخذ يتوسل إلى الملك أهاز ثم إلى الملك حزقيا أن يظلا على الحياد فى الحرب القائمة بين أشور وأفرايم . ذلك أنه لم يكن يشك — كما لم يكن عاموس وهوشع يشكان — فى أن السامرة(١٠٨) لا بد ساقطة ، وأن المملكة الشمالية مقبلة على آخر أيامها . فلما أن حاصر الأشوريون أورشليم أشار إشعيا إلى حزقيا ألا يسلم المدينة . وبدا أن انسحاب جيوش سنحريب المفاجئ مبرر قوى لهذه النصيحة . ومن ذلك علا شأنه زمناً ما لدى الملك والشعب على السواء . وكان ينصح على الدوام بأن يعامل الناس بالعدل ، وأن يترك أمرهم بعد ذلك إلى يهوه ، فيستخدم أشور أداة له يؤدبهم بها ، ولكنه سيهلكها هى نفسها فى آخر الأمر . وكان من أقواله أن يهوه سيقضى على جميع الأمم المعروفة له ، وهو يقول فى بعض فصول سفره (من الأصحاح السادس عشر إلى الثالث والعشرين) إن موآب وسوريا وإثيوبيا ومصر سيكون مصيرها الدمار و « كلها يولول »(١٠٩) . وهذا الدمار بالخراب وهذه اللعنات المتكررة تفسد ما فى سفر إشعيا من جمال ، كما تفسد كل ما فى التوراة كلها من نبوءات ، ولولاها لكانت من أجمل ما كتب فى الأدب .

على أن تشهيره هذا إنما ينصبّ على ما يجب أن ينصبّ عليه — على الاستغلال الاقتصادى والشراهة ، فهو إذا تحدث عنهما سما فى حديثه إلى أرقى

(*) يتكون الكتاب الذى يحمل اسمه من مجموعة من « التنبؤات » (أى المواعظ) كتبها مؤلفان أو أكثر من مؤلفين عاشا فى الفترة المحصورة بين ٨١٠ ، ٣٠٠ ق . م(١٧٠) وتعزى الفصول من ١ إلى ٣٩ عاد إلى « إشعيا الأول » الذى نتحدث عنه فى هذه الصفحات .

ما وصل إليه الأدب فى أسفار العهد القديم ، فى فقرات تعد من أروع ما كتب من النثر فى أدب العالم كله :

« الرب يدخل فى المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم ، وأنتم قد أكلتم الكرم . سلبُ البائس فى بيوتكم . ما لكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين ؟ . . . ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ، ويقرنون حقلا بحقل حتى لم يبق موضع . فصرتم تسكنون وحدكم فى وسط الأرض ! . . . ويل للذين يقضون أقضية البطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ليصدوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام . وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة ؟ وأين تتركون مجدكم ؟»(١١٠).

وهو يزدرى أشد الازدراء من يتظاهرون فى العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء :

« لماذا لى كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات . . . رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى . صارت علىّ ثقلا . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم . وإن كثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . أعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى ، كفوا عن فعـــل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق . أنصفوا المظلوم . اقضوا لليتيم . حاموا عن الأرملة »(١١١) .

وهو ممتلئ القلب حقداً ، ولكنه غير يائس من شعبه ؛ وكما أن عاموس قد ختم مواعظـــه بنبوءة ، يحاول اليهود الآن تحقيقها وهى عودتهم إلى فلسطين(١١٢) ، كذلك يختتم إشعيا مواعظه بترديد أمل اليهود فى ظهور من يقضى على ما بينهم من انقسام سياسى ، وخضوع للأجنبى ، وما هم فيه من بؤس وشقاء ، ومن يعيد إلى الأرض الإخاء والسلام :

« ها ! العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل » . لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام . . . ويخرج قضيب من جذع يسى » . ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب » . . . يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فمه ، ويميت المنافق بنفخة شفتيه ، ويكون البر منطقة متنيه ، والأمانة منطقة حقويه ، ويسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معاً ، وصبى صغير يسوقها » . . . فيطبعون سيوفهم سككاً ، ورماحهم مناجل ولا ترفع أمة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد »(١١٣) .

ذلك إلهام جد عجيب ؛ ولكنه إلهام لن يعبر عن مزاج اليهود حتى تمر بهم أجيال كثيرة . وكان كهنة الهياكل ينصتون بعطف مكظوم إلى هذه الدعوة النافعة التى تحث الناس على التقى والصلاح ؛ وكانت شيع من اليهود تتطلع إلى هؤلاء الأنبياء تتلقى عنهم هذه الدعوة الملهمة ، ولعل هذه الأقوال التى تدعوهم إلى نبذ الشهوات الجسمية كان لها بعض الأثر فى تقوية ما أوجدته الصحراء فى اليهود من نزعة إلى التزمت فى الدين ؛ غير أن حياة القصور والخيام ، والأسواق والحقول ، ظلت فى أغلب الأحيان تجرى على سننها القديم ، فكانت الحرب تفضى على من تصطفى من كل جيل ، وظل الاسترقاق مصير الغريب ، وظل التاجر يطفف الكيل ويغش فى الميزان ، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة(١١٤) .

وترك الأنبياء أعمق آثارهم فى يهودية ما بعد التقى ، ثم فى العالم كله عن طريق اليهودية والمسيحية . وفى أسفار عاموس وإشعيا نرى بداية المسيحية والاشتراكية والمعين الذى فاضت منه الدعوات إلى إقامة عالم مطهر من الشرور يطوف به طائف الفقر أو الحرب فيكدر ما فيه من أخوة وسلام .

وهذه الأسفار هى منشأ العقيدة اليهودية الأولى التى تقول بمجىء مسيح

يقبض على زمام الحكم ، ويعيد إلى اليهود سلطانهم الدنيوى ، ويجعل الصعاليك المملقين الحاكمين بأمرهم فى العالم كله وكان إشعيا وعاموس هما اللذان بدآ فى عصر الحروب يمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها عيسى أساساً جوهرياً لدينه . وكانا أول من اضطلع بذلك العبء الثقيل عبء تحويل رب الجنود إلى إله حب ، وهما اللذان جندا جهوده واستعاناه على نشر المبادئ الإنسانية ، كما جند المسيح متطرفو الاشتراكيين فى القرن التاسع عشر ليستعيناه على نشر المبادئ الاشتراكية . وهما اللذان بثا فى عقول الألمان — بعد أن طبعت التوراة فى أوربا — الإيمان بمسيحية جديدة وأوقدا شعلة الإصلاح الدينى ، وكانت فضائلهم القوية غير المتسامحة هى التى أخرجت طائفة المتطهرين المسيحيين . وكانت فلسفتهم الأخلاقية تقوم على نظرية أجدر من غيرها بالتسجيل — وهى أن الطيب سوف يوفق وينجح ، وأن الخبيث سوف يصرع ، وقد تكون هذه نظرية مخادعة ، ولكن ما فيها من خداع — إن كان فيها خداع — هو خداع العقل النبيل . ولئن كان هؤلاء الأنبياء لا يتصورون الحرية أو يفكرون فيها ، فإنهم كانوا يحبون العدالة ويدعون إلى القضاء على ما كان يضعه الأسباط من قيود على الأخلاق الطيبة . ولقد أقاموا أمام البائسين فى العالم أملاً فى التآخى كان تراثاً غالياً ، ظلوا يتوارثونه على مدى الأجيال(*) .

(*) يتبين القارئ من هذا الفصل أن دولة اليهود لم تمكث فى فلسطين فى الزمن القديم إلا فترة وجيزة ، فقد قامت فى عهد شاول وبلغت أوجها فى عهد خلفه داود ودب فيها الضعف فى عهد سليمان وانقسمت من بعده ثم زالت زوالا سريعاً من الوجود . ترى هل هذه الفترة الوجيزة تكفى لأن تجعل ليهود اليوم حقا فى الاستيلاء على فلسطين وإخراج أهلها منها بعد أن قاموا فيها أربعة عشر قرنا من الزمان ؟ هذا والله منطق غريب لو صح لكان من حق العرب أن يستولوا على أسبانيا وجزء كبير من فرنسا وصقلية وجنوبى إيطاليا وقد حكموا بعضها أكثر مما حكم يهود فلسطين . (المترجم)

الفصل الخامس

موت أورشليم وبعثها

مولد التوراة — تدمير أورشليم — الأسر البابلى — إرميا — حزقيال — إشعيا الثانى — تحرير اليهود — الهيكل الثانى .

كان أهم أثر للأنبياء فى معاصريهم هو كتابة التوراة . وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يرتد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية ، فأخذ الكهنة يتساءلون ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية . ورأوا الأنبياء يعزون إلى يهوه ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها ، فاعتزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صورة سنن إلهية تبعث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معونة الأنبياء ، وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف . وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك يوشيا . فلما كانت السنة الثامنة عشرة أو نحوها من حكمه أبلغ الكاهن خلقيا الملك أنه « وجد » فى سجلات الهيكل ملفاً عجيباً قضى فيه موسى نفسه فى جميع المشكلات التاريخية والخلقية التى كانت مثار الجدل العنيف بين الأنبياء والكهنة . وكان لهذا الكشف أثر عظيم فى نفس القوم ، فدعا يوشيا كبارهم إلى الهيكل وتلا عليهم فيه « سفر الشريعة » فى حضرة آلاف من الشعب (حسبما تقول الرواية) ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء فى هذا السفر « وأوقف كل الموجودين فى أورشليم وبنيامين فعمل سكان أورشليم حسب عهد الله »[١١٥] .

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان « سفر الشريعة » هذا . فقد يكون سفر الخروج من الأصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين ، وقد يكون سفر تثنية الاشتراع[١١٦] ؛ وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع فى تلك

الساعة ؛ فكل ما فيه أنه يقنن ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد . ومهما يكن مصدرها فإن الذين استمعوا لها وهى تقرأ عليهم ، أو سمعوا بها ولم يكونوا حاضرين وقت قراءتها ، قد تأثروا بها أشد الأثر . واغتنم الملك يوشيا هذه الفرصة السانحة فاستعان بهذه العواطف الجياشة على تحطيم مذابح الآلهة المنافسين ليهوه فى يهوذا ، وأخرج « من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل » ، « ولاشى كهنة الأصنام . . . والذين يوقدون للبعل ، للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء » و « نَجَّس تُوفة . . . لكيلا يُعَبِّر أحد ابنه أو ابنته فى النار لِمُولَك . وحطم المذابح التى بناها سليمان لكموش ، وللكوم ، ولعشتورت »(١١٧) .

ويبدو أن هذه الإصلاحات لم ترض يهوه فتحمله على أن يقدم المعونة لشعبه . نعم إن نينوى قد سقطت كما قال الأنبياء ، ولكن سقوطها لم يكن له من أثر إلا أن ترك يهوذا خاضعة لحكم مصر أولا ثم لحكم بابل فيما بعد . ولما أن حاول نخاو ملك مصر أن يمر بفلسطين فى زحفه على سوريا وقف يوشيا فى وجهه عند مجدو حيث كانت الواقعة القديمة المشهورة ظناً منه أن إلهه سيعينه على خصمه ، ولكنه هُزم وقُتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت انتصر نبوخذ نصر على نخاو فى قرقميش واستولى على يهوذا وجعلها ولاية تابعة لبابل . وحاول حافاء يوشيا ، بالوسائل الدبلوماسية السرية ، أن يلقوا عن كاهلهم نير بابل ، وأرادوا أن يستعينوا فى سعيهم هذا بمصر ، ولكن نبوخذ نصر علم بالأمر ، فزحف بجيوشه على فلسطين ، واستولى على أورشليم ، وأسر الملك يهوياقيم ، ورفع صدقيا على عرش يهوذا ، ثم عاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود » . ولكن صدقيا كان أيضاً محباً للحرية أو للسلطان فخرج على بابل ، فعاد إليه نبوخذ نصر معتزماً أن يحل المشكلة اليهودية حلاً نهائياً كما يظن ، فاستولى مرة أخرى على أورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان وقتل أبناء صدقيا أمام عينيه ،

ثم سمل عينيه هو نفسه وأسر جميع سكان المدينة تقريباً وساقهم أمامه إلى بابل(١١٨) . وقد خلد أحد شعراء اليهود فيما بعد ذكرى هذه القافلة البائسة فى أغنية من أروع أغانى العالم قال :

على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون

وفى وسط الصفصاف علقنا أعوادنا

لأن مَن سبونا طلبوا إلينا أن نغنّيهم ، والذين عذبونا

أرادوا أن نطربهم ، ونادونا هلاّ أنشدتمونا أحد اناشيد صهيون ؟

وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله فى بلد غريب ؟

ولئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى حذقها

ليلتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم

وإن لم تكونى لدىَّ خيراً من أفراحى(١١٩) .

وفى هذه الأزمة كلها ظل إرميا أفصح الأنبياء وأشدهم حقداً على قومه يدافع عن بابل ويعلن فى الملأ أنها سوط عذاب فى يد الله ، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون ، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى نبوخذ نصر ؛ حتى ليكاد من يقرأ أقواله فى تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين ؛ انظر إلى قول إرميا على لسان ربه :

« إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوّتى العظيمة وبذراعى الممدودة وأعطيتها لمن حسن فى عينى ، والآن قد وقعت كل هذه الأراضى ليد نَبُوخَذ نصر مَلك بابل عبدى . . . فنخدمه كل الشعوب . . . ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده »(١٢٠) .

قد يكون هذا الرجل خائناً أو لا يكون ، أما من الناحية الأدبية فإن كتاب

نبوءاته التى يقال إنه تلقّاها عنه تلميذه باروخ ليعدّ من أبلغ ما كتب فى الآداب كلها ومن أعظمها قوة ؛ وذلك لما فيه من تصوير حى واضح وتأنيب شديد لا رحمة فيه ولاهوادة . وفيه فوق ذلك إخلاص يبدأ بسؤال الرجل نفسه ثم يختتم بارتياب شريف فى خطته وفى حياته كلها من بدايتها إلى نهايتها : « ويل لى يا أمى لأنك ولدتنى إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض ، لم اقرض ولا أقرضونى ، وكل واحد يلعننى ... ملعون اليوم الذى ولدت فيه »(١٢١) .

واشتعلت فى صدره نيران الغضب حين رأى ما عليه قومه وزعماؤهم من انحطاط فى الأخلاق وحمق فى السياسة . ورأى فرضاً عليه أن يدعو بنى إسرائيل إلى التوبة والندم . وخيل إلى إرميا أن كل ما يشهده من انحلال قومى ، وضعف سياسى ، وخضوع للأجنبى ، وقد أنزل به يهوه باليهود عقابا لهم ما ارتكبوا من الذنوب . « طوفوا فى شوارع أورشليم ، وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا فى ساحاتها ، هل تجدون إنساناً ، أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها »(١٢٢) . لقد ساد الظلم فى كل مكان وعم الفسق والفجور : ولما أشبعتهم زنوا ، وفى بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصنا ملعونة سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه »(١٢٣) . ولما حاصر البابليون أورشليم أراد سراة المدينة أن يسترضوا يهوه فأطلقوا من كان عندهم من عبيد عبرانيين ، فلما أن رفع الحصار فترة قصيرة من الوقت ، وخيل إليهم أن الخطر قد زال ، قبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة . لقد كانت هذه فترة جمعت من تاريخ الإنسانية ما لم يستطع إرميا أن يقف أمامه صامتا ساكنا لا يبدى حراكا(١٢٤) ، فأخذ كغيره من الأنبياء يتوعد المنافقين الذين يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقى والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح للفقراء وطحن عظامهم ، ويذكرهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القرابين بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين(١٢٥) ، وهو يرى أن الكهنة والأنبياء لا يكادون يقلون فسادا

عن التجار ، وأنهم كالشعب نفسه فى حاجة إلى أن تطهر أخلاقهم أو تصاغ من جديد ، وأن يختتنوا فى أرواحهم كما يختتنون فى أجسامهم كما يقول إرميا بعبارته العجيبة : « اختتنوا للرب وأنزعوا غُرَل قلوبكم(١٢٦) » .

وكان هذا النبى يخطب قومه بما كان منتشراً بينهم من فساد بألفاظ من نار لا يعادلها فى شدتها إلا خطب الفلديين فى چنيڤا واسكتلندة وإنجلترا فى عهد الإصلاح الدينى . فكان يسب اليهود أقذع سباب ويصور لهم وهو جذلان ما سيحل بمن لا يستمعون إليه من هلاك(١٢٧) . وكم من مرة تنبأ لهم بتخريب أورشليم وسبيهم على يد البابليين ، ورثى لما سيحيق بالمدينة (التى يسميها بنت صهيون) من قضاء محتوم بعبارات ما أشبهها بعبارات المسيح : « يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع ، فأبكى ليلا ونهاراً قتلى بنت شعبى(١٢٨) » .

وخيل إلى الأمراء فى حاشية صدقيا أن هذا كله غدر بالوطن وخيانة له وتفريق لآراء اليهود وأرواحهم فى ساعة المحنة . ولكن إرميا لم يعبأ بأقوالهم وأخذ يسخر منهم فحمل نيراً خشبياً فوق عنقه ، وأخذ يقول إن يهوذا كلها يجب أن تخضع لنير البابليين ، وإن الخير لها أن يكون خضوعها هـذا خضوعاً سلمياً بلا حرب ولا قتال : ولما انتزع منه ضانيا نيره صاح قائلا إن يهوه سيصب لكل يهودى نيرا من حديد . وحاول الكهنة أن يثنوه عن عمله هذا بوضع رأسه فى الدهق ، ولكنه وهو فى هـذا الوضع ظل يشهر بهم ، فما كان منهم إلا أن يستدعوه إلى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه ، غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة . ثم قبض عليه الأمراء وربطوه فى حبال وأنزلوه بها فى بئر مملوءة بالوحل ، ولكن صدقيا خفف هذا العقاب بأن سجنه فى فناء القصر ، وفيه وجده البابليون حين سقطت أورشليم فى أيديهم . وأمر نبوخذ نصر رجاله أن يحسنوا معاملته ، وأن يعفوه من قرار النفى العام . وتقول إحدى الروايات الموثوق بها إنه كتب « مراثيه » فى آخر أيامه(١٢٨) ! وهـذه المراثى هى أبلغ أسفار العهد القديم بأجمعها

وفيها أخذ يندب نصره الكامل وما حل بأورشليم من دمار ، ورفع إلى السماء ذلك السؤال الذى سأله أيوب ولم يجد له جواباً :

كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب ! كيف صارت كأرملة العظيمةُ فى الأمم ؟ السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية ! . . أما إليكم يا جميع عابرى الطريق ، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى . . أنت يا رب أبرّ من أن أخاصمك ، لكن أكلمك من جهة أحكامك . لماذا تنجح طريق الأشرار ؟ اطمأن كل الغادرين غدراً »(١٢٩) .

وفى هذه الأثناء كان خطيب آخر فى بابل يحتمل عن إرميا عبء التنبؤ ، وهـــذا الخطيب هو حزقيال . وكان حزقيال هذا رجلا من أسرة الكهنة سيقت إلى بابل فى أيام السبى الأول من أورشليم . وبدأ خطبه كما بدأها إشعيا الأول وإرميا منددا أشد التنديد بما شاع فى أورشليم من وثنية فى الدين وانحلال فى الأخلاق . وشبّه أورشليم بالزانية . وأخذ يُبدئ فى ذلك ويُعيد ، لأنها باعت عبادتها للآلهة الغرباء(١٣٠) ، وشبه السامرة وأورشليم بزانيتين توأمين . وكانت هذه الكلمة تجرى على لسانه كما كانت تجرى على ألسنة الكتّاب المسرحيين أيام عودة آل استيورت إلى عرش إنجلترا . ووضع ثبتاً طويلا بذنوب أورشليم ثم قضى عليها بالتخريب والسقوط فى أيدى الأعداء . وفعل ما فعله إشعيا ، فأدان الأمم كلها من غير تمييز بينها ، وشهر بخطأ موآب وصور ومصر وأشور وأنذرها بالهلاك والسقوط . وحتى أمة ماجوج العجيبة لم تنج من هذا التشهير(١٣١) ، ولكنه لم يكن فى قلبه من الحقد عليها ما كان فى قلب إرميا ، فقد رق قلبه لها فى آخر الأمر وأعلن أن الله سينجى « بقية » من اليهود وتنبأ بأن المدينة ستبعث حية(١٣٢) . وأخذ يصف ما يراه بعين الخيال من بناء المعبد الجديد فيها ، وتصور قيام مدينة فاضلة للكهنة فيها الكلمة العليا والمقام الأعظم ، يقيم بها يهود مع شعبه أبد الدهر .

وكان يرجو أن يُبقى لهذه الخاتمة السعيدة على نفسية بنى وطنه المنفيين ويؤخر اندماجهم فى الثقافة البابلية وفى الدم البابلى . فقد خيل إليه كما يخيل إلى غيره فى هذه الأيام أن هذا الاندماج سيقضى على وحدة اليهود وعلى كيانهم أيضاً ، ذلك أنهم قد أثروا وحسنت حالهم فى أرض الجزيرة الغنية ، حيث كانوا يتمتعون بقسط موفور من الحرية فى عاداتهم ، وسرعان ما زاد عديدهم ونمت ثروتهم ، وأيسروا فيما عاد به عليهم خضوعهم من هدوء ووفاق لم يتعودوهما من قبل . وأخذت طائفة منهم مطردة الزيادة تعبد الآلهة البابلية ، وتألف الأساليب الشهوانية الشائعة فى العاصمة القديمة ، حتى إذا كان الجيل الثانى من أبناء المنفيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت أو كادت تمحى من أذهانهم .

وقد رأى المؤلف المجهول ، الذى أخذ على عاتقه أن يكمل سفر إشعيا ، أن يعيد ذلك الجيل المرتد إلى دين إسرائيل . وكان مما يمتاز به هذا المؤلف وهو يعمل على إعادتهم إلى دينهم القديم أن يرقى بهذا الدين إلى مستوى رفيع لم يرق إليه دين من الأديان التى ظهرت فى الشرق الأدنى حتى ذلك الوقت(*) ، فبينما كان بوذا فى الهند ينادى بقمع الشهوات ، وبينما كان كنفوشيوس فى الصين يصوغ الحكمة لشعبه ، كان « إشعيا الثانى » هذا يعلن لليهود المنفيين فى نشر جزل مشرق مبادئ التوحيد ، ويعرض عليهم إلها جديداً شفيقاً عليهم رحيما بهم ، يفوق فى شفقته ورحمته ما كان عليه يهوه الغضوب كما صوره إشعيا الأول نفسه . وشرع هذا النبى العظيم يعلن فى الناس رسالته بعبارات اختارها أحد الأناجيل المتأخرة ليستحث بها المسيح الشاب على أن يؤدى هو الآخر رسالته . ولم تكن هذه

(*) ولسنا نعرف شيئاً من تاريخ هذا الكاتب الذى اختار أن يتحدث على لسان إشعيا ، وهى طريقة أدبية كانت شائعة فى ذلك الوقت . وكل ما نستطيع أن نجزره من أمره أنه كتب قبيل تحرير اليهود على يد قورش أو بعيد هذا التحرير . ويعزو دارسو التوراة إلى هذا الكاتب الأصحاحات من ٤٩ إلى ٥٥ كما يعزون إلى كاتب آخر مجهول أو كتاب مجهولين الأصحاحات من ٥٦ إلى ٦٦(١٣٢) .

الرسالة الجديدة هى صب اللعنات على الشعب لما ارتكب من الذنوب . بل كانت تهدف إلى بث الأمل فى قلوبهم أيام استبعادهم . « روح السيد الرب علىّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب مكسورى القلب ، لأنادى بالمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق(١٣٣) » ؛ فقد وجد هذا الكاتب أن يهوه ليس إله حرب وانتقام بل أباً محبًّا ؛ وملأه هذا الكشف الجديد سعادة ، وأوحى إليه أناشيد فخمة ، فأخذ يبشر بالإله الجديد منقذ شعبه .

« صوت صارخ فى البريّة ، أعدوا طريق الرب ، قوموا فى القفر سبيلا لإلهنا ، كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا(*)... هو ذا الرب بقوة يأتى ، وذراعه تحكم له... كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان ، وفى حضنه يحملها ، ويقود المرضعات » .

ثم يبشر هذا النبى بالمسيح المنقذ ، ويرفع من شأن هذه البشرى حتى تصير من الآراء السائدة بين شعبه ، ويصف « الخادم » الذى سينجى إسرائيل بالتضحية الأليمة :

« محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن ...محتقر فلم نعتد به . لكن أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحمّلها ، ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا ... والرب وضع عليه إثم جميعنا »(**)(١٣٤) .

ويتنبأ إشعيا الثانى بأن بلاد الفرس ستكون أداة هذا التحرير . وينادى بأن قورش رجل لا يُقهر وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر فيعودون إلى أورشليم ويشيدون هيكلا جديداً ومدينة جديدة تكون جنة بحق . « الذئب والحمل يرعيان معاً ، والأسد يأكل التبن كالبقر ، أما الحية فالتراب طعامها ،

(*) لعله يشير بهذا القول إلى الطريق الممتد من بابل إلى أورشليم .

(**) لا ترى البحوث الحديثة أن لفظ « الخادم » هنا نبوءة بالمسيح(١٣٤أ) .

لا يُؤذون ولا يُهلكون ، فى كل جبل قدسى يقول الرب »(١٣٥) . ولعل الذى أوحى إلى هذا النبى فكرة وجود إله واحد للكون كله هو نهضة الفرس وانتشار قوتهم ، وإخضاعهم دول الشرق الأدنى كلها ، وجمعها فى وحدة إمبراطورية أوسع رقعة وأحسن حكما من أى نظام اجتماعى عرفه الناس من قبل . وهذا الإله لا يقول كما كان يقول يهوه :

« أنا الرب إلهك . . لن تكون لك آلهة غريبة أمامى » بل يقول الآن : « أنا الرب وليس آخر لا إله سواى »(١٣٦) . ويصف النبى الشاعر هذا الإله العالمى فى فقرة من أروع فقرات التوراة :

« من كان بكفيه المياه ، وقاس السموات بالشبر ، وكال بالكيل تراب الأرض ، ووزن الجبال بالقبان ، والآكام بالميزان .. هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان ... هو ذا الجزائر يرفعها كدُقّة ... كل الأمم كلا شىء قدامه من العدم والباطل تحسب عنده . فيمن تشبهون الله ؟ وأى شبه تعادلون به ؟ ... الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب ، الذى ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن . . . ارفعوا إلى العلاء عيونكم ، وانظروا مَن خلق هذه »(١٣٧) .

وكانت ساعة من أروع الساعات فى تاريخ إسرائيل حين دخل قورش بابل فاتحاً عالمياً بعد طول انتظار ، وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم بكامل حريتهم . ولكنه خيب رجاء بعض الأنبياء وأظهر ما كان فى طباعه من حضارة أرقى من حضارتهم ، إذ ترك بابل وشأنها ولم يمسّ أهلها بسوء ، وأظهر خضوعه لآلهتها ، وإن كان فى الواقع خضوعاً مشكوكا فيه . كذلك أعاد قورش لليهود ما كان باقياً فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما نبوخذ نصر من الهيكل ، وأمر الجماعات التى كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجونه فى أثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم . ولم يتحمس شباب اليهود

لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم قد تأقلموا فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة . ومرت سنتان بعد مجىء قورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التى دامت ثلاثة شهور إلى الأرض التى خرج منها آباؤها قبل ذلك الوقت بمائة عام(١٢٨)

ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيباً كبيراً فى وطنهم القديم ، كما لا يجد العائدون إليه فى هذه الأيام . ذلك أن أقواماً آخرين من الساميين قد استقروا فى تلك البلاد ، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها ، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغيرين على بلادهم وحقولهم ، ولولا تلك الدولة القوية الصديقة التى كانت تحمى اليهود العائدين لما استطاعوا أن يستقروا فى فلسطين . وأذن دارا الأول ملك الفرس للأمير زرّ بابل أن يعيد بناء الهيكل ، واستطاع هو وشيعته أن يتموا بناءه بعد اثنتى عشرة سنة من عودة اليهود ، رغم قلة عدد أولئك المهاجرين وضآلة مواردهم ، ورغم ما كانوا يصادفونه من عقبات فى كل خطوة يخطونها بسبب هجمات الأهلين المعادين لهم وتآمرهم عليهم ، وعادت أورشليم كما كانت مدينة يهودية شيئاً فشيئاً ، وترددت فى الهيكل أصداء الأناشيد التى كانت تتغنى بها بقية منهم آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق قوتها .

الفصل السادس

أهل الكتاب

سفر الشريعة — تأليف الأسفار الخمسة — أساطير « التكوين » — الشريعة الموسوية — الوصايا العشر — فكرة الله — السبت — الأسرة اليهودية — قيمة الشرائع الموسوية

لم يكن فى وسع اليهود بعد عودتهم أن يقيموا لهم دولة حربية ، ذلك أنهم لم يكن لهم من العدد ومن الثروة ما يمكنهم من إقامة هذه الدولة . ولما كانوا فى حاجة إلى نوع من الإدارة يعترفون فيه بسيادة الفرس عليهم ويهيئ لهم فى الوقت نفسه سبيل الوحدة القومية والنظام ، فقد شرع الكهنة فى وضع قواعد حكم دينى يقوم كما كان يقوم حكم يوشيا على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم ، وعلى أوامر الله . وفى عام ٤٤٤ ق . م دعا عزرا ، وهو كاهن عالم ، اليهود إلى اجتماع عام خطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » . وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون عليهم ما تحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه ومبادئ خلقية يسيرون على هديها ويطيعونها إلى أبد الآبدين(١٢٩) . وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيدهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر فى تاريخ العالم .

تُرى ماذا كان « كتاب شريعة موسى » هذا ؟ لم يكن هذا الكتاب هو بعينه « كتاب العهد » الذى قرأه يوشيا من قبل ، لأن هذا العهد قد جاء فيه بصريح العبارة أنه قرئ على اليهود مرتين كاملتين فى يوم واحد ، على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت إلى أسبوع(١٤٠) كامل . وكل ما فى وسعنا

أن نفعله هو أن نحزر أن الكتاب الكبير كان يحتوى على جزء هام من أسفار العهد القديم الخمسة يسميها اليهود « تورة »(*) ويسميها غيرهم البنتاتوش أو الأسفار الخمسة(٥)(١٤١) .

كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد ، ويجب أن نفرغ منه هنا فى فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب :

إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة كلتاهما عن الأخرى فى سفر التكوين ، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم « يهوه » على حين تتحدث الأخرى عنه باسم إلوهيم . ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص الخاصة بيهوه كتبت فى يهوذا ، وأن القصص الخاصة بإلوهيم(**) كتبت فى إفرايم ، وأن هذه وتلك قد امتزجتا فى قصة واحدة بعد سقوط السامرة . وفى هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية

(*) التورة : لفظ عبرى معناه الهدى أو الإرشاد ، والبنتاتوش كلمة يونانية معناها الملفات الخمسة . (المترجم)

(**) وهى تفرقة كان أول من أشار إليها جان أستروك Jean Astruc فى عام ١٧٥٣ . ومن الفقرات التى تعزى إلى كاتب قصص يهوه فى سفر التكوين الفقرات المحصورة بين الآية الرابعة من الأصحاح الأول والرابعة والعشرين من الأصحاح الثالث وكذلك الأصحاحات ٤ ، ٦ — ٨ ، ١١ من ١ إلى ٩ ، والأصحاحين ١٢ ، ١٣ ، ١٨ — ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ الايات ١ — ٤٥ ، والأصحاحات ٣٢ ، ٤٣ — ٤٤ ؛ وفى سفر الخروج الأصحاحين ٤ — ٥ ، الآيات المحصورة بين الآية رقم ٢٠ فى الأصحاح الثامن إلى الآية رقم ٧ فى الأصحاح التاسع ، والأصحاحان ١٠ ، ١١ ، والآيات المحصورة بين الآية رقم ١٢ من الأصحاح الثالث والثلاثين إلى الآية رقم ٢٦ من الأصحاح الرابع والثلاثين ؛ وفى سفر العدد الآيات من ٢٩ إلى ٣٦ من الأصحاح الحادى عشر الخ ؛ أما الفقرات الإلوهية التى لا شك فيها فهى التى فى سفر التكوين فى الأصحاح الحادى عشر من ١٠ إلى ٣٢ ، وفى الأصحاح العشرين ١ — ١٧ ، والحادى والعشرين ٨ — ٣٢ والثانى والعشرين ١ — ١٤ والأصحاحات ٤٠ — ٤٢ ؛ و٤٥ وفى سفر الخروج الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من الأصحاح الثامن عشر والأصحاحات ٢٠ — ٢٢ ، والآيات من ٧ إلى ١١ فى الأصحاح الثالث والثلاثين ؛ وفى سفر العدد الأصحاحات ١٢ ؛ ٢٢ — ٢٤ الخ(١٤٢) .

أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار السالفة الذكر . وثمة عصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد . والرأى الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من « سفر الشريعة » الذى أذاعه عزرا(١٤٢) ، ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام ٣٠٠ ق . م(١٤٣) .

وكانت أساطير الجزيرة هى المعين الغزير الذى أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التى يرجع عهدها فى تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد . ولقد رأينا صوراً قديمة من هذه القصص فيما مر بنا من صفحات هذا الكتاب ، ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلى فى أثناء أسرهم(١٤٤) . ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة فى جميع بلاد الشرق الأدنى .

وتقول القصص الفارسية وقصص التلمود الخاصة بالخلق إن الله خلق فى بادئ الأمر إنساناً مكوناً من ذكر وأنثى متصلين من الخلف كالتوأمين السيامين ثم رأى فيما بعد أن يفصل أحدهما عن الآخر . وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة غريبة وردت فى سفر التكوين (الآية الثانية من الأصحاح الخامس) :

« يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكراً وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم » ، ومعنى هذا أن أبانا الأول كان ذكراً وأنثى معاً — ويبدو أن أحداً من رجال الدين إذا استثنينا أرسطو فانيز لم يفطن إلى هذه العبارة(*)

أما قصة الجنة فتظهر فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله — فى مصر ، والهند ، والتبت ، وبابل ، وبلاد الفرس واليونان(**) وپوليفيزيا والمكسيك

(*) قارن هذا « بمائدة » أفلاطون .

(**) قارن هذا بما كتبه الشاعر اليونانى هزيود (حوالى ٧٥٠ ق . م) فى العمل والأيام ، كان الناس يعيشون كالآلهة مبرئين من الرذائل والشهوات والغضب والنصب ، يقضون أيامهم هادئين مسرورين سعداء فى رفقة الكائنات الإلهية . . . وكانت الأرض فى تلك الأيام أجمل مما هى الآن ، وكانت تخرج من نفسها مقداراً عظيماً من الفاكهة المختلفة الأنواع ... وكان الرجال وهم فى سن المائة يعدون غلماناً لا أكثر »(١٤٦) .

وغيرها من البلاد(١٤٥) . وفى معظم هذه الجنان أشجار محرمة وفيها كذلك أفاع وهولات سلبت الناس الخلود أو نفثت السم فى الجنة(١٤٦) . وأكبر الظن أن الحية والتينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية .

وتشير هذه القصة إلى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تقضيان على الطُّهر والسعادة ، وأنهما مصدر كل الشرور . وترى هذه الفكرة بعينها فى آخر « العهد القديم » فى سفر الجامعة ، كما تراها هنا فى بدايته .

والمرأة فى معظم هذه القصص هى الأداة التى تتخذها الحية أو يتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان فى الشر — الجميل ، سواء كانت هذه المرأة هى حواء ، أو پندورا ، أو پوسى الواردة فى الأساطير الصينية . فقد جاء فى قصص شى چنج أن « كل الأشياء كانت فى بداية الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن امرأة ألقت بنا فى ذل الاستعباد ، فشقاؤنا إذن لم يأتنا من السماء بل جاءت به المرأة ، لأنها هى التى أضاعت الجنس البشرى « آه ! ما أشقاك يا پوسى ! لقد أشعلت النار التى أحرقتنا والتى تزداد كل يوم ضراماً . . . لقد ضاع العالم ، وطغت الرذيلة على كل شىء » .

وقصة الطوفان أكثر انتشاراً من قصة الخلق نفسها ، فلا يكاد يوجد فى الأمم القديمة أمة لم تعرفها ، وقلما يوجد جبل فى آسية لم يرس عليه نوح أو شمش — نيشتيم بعد أن أضناه التعب من ضربات المياه(١٤٧) . ولقد كانت هذه القصص فى العادة هى الوسيلة الشعبية أو الطريقة المجازية التى عبر بها القدماء عن قضاء فلسفى أو موقف أخلاقى لخصوا فيه بإيجاز تجارب طويلة مرت بالجنس البشرى — وهى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تُنتجان من الآلام أكثر مما تنتجان من اللذة ، وأن الحياة البشرية تتعرض من حين إلى حين لأخطار الفيضانات أى لطغيان الأنهار العظيمة التى كان ماؤها سبباً فى قيام الحضارات القديمة . وإن الذين يسألون هل هذه القصص صحيحة أو غير صحيحة ليسألون فى الواقع أتفه الأسئلة

وأبعدها عن المقصود منها ، ذلك أن أهميتها ليست فيما تقصه من قصص ، بل فيما تعرضه من أحكام ، ومع ذلك فليس من العقل فى شىء ألا يستمتع الإنسان ببساطتها التى تخلب اللب وبقصصها الواضح وأحداثها السريعة .

وكانت الأسفار التى تليت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا هى التى صيغت منها القوانين « الموسوية » التى قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد . ويقول سارتن **Sarton** ، وهو المعروف بشدة حرصه فيما يكتب ، معلقاً على هذه الشرائع : « إن أهميتها فى تاريخ الأنظمة والقوانين تفوق كل تقدير(١٤٩) » . لقد كانت أكبر محاولة فى التاريخ لاتخاذ الدين قاعدة لسياسة الأمم وأداة لتنظيم كل صغيرة وكبيرة فى الحياة كلها . وفى ذلك يقول رينان **Renan** : « لقد صارت تلك الشريعة أضيق رداء شد على جسم الحياة الإنسانية(١٥٠) » ، فقد جعلت الطعام(*) ، والدواء ، والشئون الصحية الفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والانحراف الجنسى والشهوات البهيمية(١٥٢) ، كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الإلهية . وفيها نشهد مرة أخرى كيف أخذ الطبيب يفترق افتراقاً بطيئاً عن الكاهن(١٥٣) — ليصبح فيما بعد ألد أعدائه . فترى سفر اللاويين يحرص أشد الحرص على وضع القوانين الخاصة لعلاج الأمراض التناسلية ، ويعنى بها أشد العناية ، فينص على عزل المصابين وما يتطلبه علاجهم من تطهير وتبخير بل وحرق المنزل الذى فشا فيه المرض عن اخره إذا دعت الحال(١٥٤)(**) . وكان اليهود الأقدمون هم الذين وضعوا قواعد الوقاية من

(*) انظر الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية . ويعزو رينانخ **Reinach** ، وربرتسن سمث **Robertson Smith** وسير چيمس فريزر **Sir James Frazer** تحريم لحم الخنزير إلى عبادة أسلاف اليهود الطوطمية للخنزير (أو للخنزير البرى) لا إلى ما كان لديهم من معلومات صحية أو رغبتهم فى اتقاء الأمراض(١٥١) . على أن عبادة الخنزير البرى قد لا تكون إلا وسيلة لجأ إليها الكهنة للنهى عن أكل لحم الخنزير « لنجاسته » فى اعتقادهم . وإن ما فى الشريعة الموسوية من قواعد صحية حكيمة ليبرر الشك فيما فسر به رينانخ هذا التحريم .

(**) وظلت الطرق التى يشير بها سفر اللاويين (فى الأصحاحات ١٣ ، ١٤) لعلاج الجذام متبعة فى أوربا حتى آخر العصور الوسطى(١٥٥) .

المرض(١٥٦) . ولكن يلوح أنهم لم يكونوا يعرفون من الجراحة غير عملية الختان ، ولم تكن هذه السُّنة الدينية — الشائعة بين المصريين الأقدمين ، وبين الساميين المحدثين — مجرد تضحية لله وفريضة يفرضها الولاء للجنس(*) ، بل كانت فوق هـذا وقاية صحية من الأقذار التى تتعرض لها الأعضاء التناسلية(١٥٨) ولعل ما فى الشريعة من قواعد خاصة بالنظافة هو الذى أبقى على اليهود خلال تجوالهم الطويل وتشتتهم ومحنتهم .

أما ما بقى من شريعة موسى فيدور كله حول الوصايا العشر (سِفر الخروج الآيات ١ — ١٧ من الأصحاح العشرين) التى قدّر لها أن يرددها نصف سكان العالم(**) . وتضع الوصية الأولى أساس المجتمع الدينى الجديد ، وهو المجتمع الذى لا يقوم على أى شريعة مدنية بل على فكرة الله الملك القدوس الذى لا تدركه الأبصار ، والذى أنزل كل قانون ، وفرض كل عقوبة ، والذى سُمِّى شعبُه بعدئذ شعب إسرائيل ، أى المدافعين عن الله .

لقد ماتت الدولة العبرية ولكن الهيكل ظل باقياً ، وشرع كهنة يهوذا

(*) وذلك لأن هذه العادة تجعل من المستحيل على اليهودى أن يخفى عن الناس حقيقة أمره . ويقول برفولت **Briffault** : إن هذه السنة اليهودية لم تتخذ صورتها التى هى عليها الآن إلا فى عهد متأخر كثيراً هو عهد المكابيين (١٦٧ ق . م) . وفى ذلك الوقت كانت العملية تجرى بطريقة تجعل فى مقدور اليهوديات أن يتقين استهزاء غير اليهوديات منهن إذ كانت هذه العملية تعمل بحيث لا يدرك الإنسان أنها عملت ، ولهذا أمر الكهنة الوطنيون أن تزال الغلفة عن آخرها(١٥٧) » .

(**) كان من المألوف فى الأزمان القديمة أن تعزى كتب القوانين إلى الوحى الإلهى . لقد رأينا من قبل كيف كانت قوانين مصر القديمة تعزى إلى الإله تحوت ، وكيف أنزل شمش إله الشمس قانون حمورابى . كذلك أعطى أحد الأرباب الملك مينوس على جبل دكتا القوانين التى حكمت بمقتضاها جزيرة كريت . وكان اليونان يمثلون ديونيس الذى يسمونه أيضاً «المشترع» وأمامه منضدتان حجريتان نقشت عليهما القوانين . ويقول أتقياء الفرس إن زردشت كان فى يوم من الأيام يصلى على جبل عال فتبدى إليه أهورا — مزدا بين الرعود والبروق ، وأنزل عليه « كتاب القانون »(١٥٩) . وفى هـذا يقول ديودور الصقلى : لقد فعلوا كل هذا لأن الفكرة التى تسمو بالبشرية فكرة رائعة قدسية ؛ أو لأن السوقة تكون أكثر طاعة للقوانين إذا حولت أبصارها إلى ما يتمتع به من تعزى إليهم من جلال وسلطان »(١٦٠) .

يحاولون كما يحاول بابوات رومة أن يعيدوا ما عجز الكهنة عن إنقاذه . ومن ثم كان وضوح الوصية الأولى وما فيها من تكرار ونصها على أن الكفر وذكر الله بما لا يليق يعاقب عليهما بالإعدام ولو كان للكافر أقرب أقرباء الإنسان(١٦١) . ذلك أن الكهنة الذين وضعوا القانون كانوا يعتقدون كما يعتقد رجال محاكم التفتيش الأتقياء أن الوحدة الدينية شرط أساسى لقيام النظام والتضامن الاجتماعيين ، وكان هذا التعصب الدينى منضما إلى الكبرياء الجنسى هو الذى أبقى على اليهود وأوقعهم فى كثير من المشاكل .

وسمّت الوصية الثانية بفكرة الله بقدر ما حطت من شأن الفن ، إذ حرّمت أن تصور له أية صورة منحوتة . وقد افترضت هذه الوصية وجود مستوى عقلى راق لدى اليهود ، لأنها نبذت كل الخرافات كما نبذت فكرة تجسد الإله ، وحاولت أن تصوّر الله منزهاً عن جميع الأشكال والصور بالرغم من الصورة البشرية المحضة التى ترسمها ليهوه أسفار موسى الخمسة ، هى تخص الدين بكل ما تنطوى عليه قلوب العبرانيين من إخلاص وولاء ، ولا تترك فيهما — فى الأيام القديمة — مكاناً للعلم والفن . وحتى علم الفلك نفسه قد أهمل أمره لكيلا يزداد عدد الآلهة الزائفين أو تعبد النجوم وتتخذ آلهة من دون الله . وكان فى هيكل سليمان قبل ذلك العهد عدد من الصور والتماثيل يكاد يجل عن الحصر(١٦٣) . أما الهيكل الجديد فلم يكن فيه شىء منها . ذلك أن التماثيل والصور القديمة قد نقلت من قبل إلى بابل ، ويبدو أنها لم تعد مع ما أعيد من آنية الفضة والذهب(١٦٤) . ومن أجل هذا لا نجد نحتاً ولا تصويراً ولا نقشاً بعد الأسر البابلى ، كما لا نجد إلا القليل منها قبل الأسر إذا استثنينا عهد سليمان الذى يكاد يكون عهداً أجنبياً عن العبرانيين . وكل ما كان الكهنة يجيزونه من الفنون فنّا العمارة والموسيقى ، وكانت الأغانى والمراسيم التى تقام فى الهيكل هى التى تخفف من أكدار حياة الشعب وشقائه ، فكانت فرقة موسيقية معها مختلف الآلات تنضم

إلى جوقة المغنين فى ترتيل المزامير ، فتبدو » صوتاً واحداً لتسبيح للرب وحمده » وتمجيد الهيكل(١٦٥) : « وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان ، وبالرباب ، وبالدفوف ، وبالجنوك ، وبالصنوج(١٦٦) » .

وتنطق الوصية الثالثة بما كان يستمسك به اليهودى من تقى وتدين ، فهو لا يحرم عليه أن ينطق باسم الله عبثاً فحسب ، بل يحرم عليه أن ينطق باسم الله تحريماً مطلقاً ، فإذا ورد اسم يهوه فى صلاته وجب عليه أن يستبدل به اسم أدنيه — الرب . ولن نجد لهذه التقوى نظيراً إلا بين الهندوس .

وقدست الوصية الرابعة يوم الراحة الأسبوعي — السبت — وصار هذا التقديس سنة من أرسخ السنن البشرية . وهذه التسمية — ولعل هذه العادة نفسها — قد جاءتهم من البابليين. فقد كان هؤلاء يطلقون على الأيام « الحرم » أيام الصوم والدعاء اسم شبتو(١٦٧) . وكان لديهم فضلا عن هذه العطلة الأسبوعية أعياد أخرى عظيمة منها مراسم كنعانية قديمة للزرع والحصاد ، ومنها أعياد دورية للقمر والشمس : فكان مَزُّوث فى بادئ الأمر عيد بداية حصاد الشعير ، وشباؤوث الذى سمى فيما بعد بنتكست عيد ختام حصاد القمح ؛ وسكوث عيد الكروم ، وبساتْش أو عيد الفصح عيد بداية نتاج قطعان الضأن ؛ وكان رش — ها — شناه عيد رأس السنة . ولم تعدل هذه الأعياد لتخلد بها حوادث هامة فى تاريخ اليهود إلا بعد ذلك الوقت(١٦٨) . وكانوا فى أول يوم من أيام عيد الفصح اليهودى يذبحون حملا أو جدياً ويأكلونه ويرشون دمه على الأبواب إشارة إلى أن هذا الدم هو نصيب الإله ، ثم ربط الكهنة فيما بعد هذه العادة بعادة قتل يهوه لأبناء المصريين البكر . وكان الحمل فى أول الأمر طوطما لإحدى القبائل الكنعانية وكان عيد الفصح عند الكنعانيين عيد تقريب حمل لأحد الآلهة

المحليين(*) . ونحن حين نقرأ الآن (فى الأصحاح الثانى عشر من سفر الخروج(**)) قصة هذا العيد ، ثم نرى اليهود فى هذه الأيام يحتفلون به على النحو الذى كانوا يحتفلون به قديماً ، ندرك قدم هذه العبادة وقوة استمساك هذا الشعب بطقوسه القديمة .

والوصية الخامسة تقدس الأسرة وتضعها من حيث بناء المجتمع فى منزلة لا تفوقها إلا منزلة الهيكل . وظلت المثل العليا التى طبع بها نظام الأسرة باقية فى أوربا طوال تاريخها المتوسط والحديث حتى جاء الانقلاب الصناعى وأدى إلى انحلالها . لقد كانت الأسرة العبرانية الأبوية نظاماً اقتصادياً وسياسياً ضخماً يتألف من أكبر رجل متزوج فيها ، ومن أزواجه ، وأبنائه غير المتزوجين ، وأبنائه المتزوجين ، وأزواجهم وأبنائهم ، ومن عبيدهم إن كان لهم عبيد . وكان الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه هذه الجماعة هو قدرتها على زراعة الأرض ؛ أما قيمتها السياسية فتنحصر فى أنها كانت تهيئ للبلد نظاماً اجتماعياً بلغ من القوة حداً تكاد الدولة أن تصبح معه لا ضرورة لها إلا فى زمن الحرب . وكان للأب على أفراد أسرته سلطان لا يكاد يُحد ؛ فكانت الأرض ملكاً له ، ولم يكن فى وسع أبنائه أن يبقوا على قيد الحياة إلا إذا أطاعوا أمره ، فقد كان هو الدولة ، وكان فى وسعه إن كان فقيراً أن يبيع ابنته قبل أن تبلغ الحلم لتكون جارية ؛ كما كان له الحق المطلق فى أن يزوجها بمن يشاء وإن كان فى بعض الأحيان ينزل عن بعض حقه فيطلب إليها أن ترضى بهذا الزواج(١٧٠) . وكانت الفكرة الشائعة أن الأولاد من نتاج الحصية اليمنى ، وأن البنات من نتاج الخصية اليسرى ، وكانت هذه فى اعتقادهم أصغر وأضعف من اليمنى(١٧١) . وكان الزواج فى أول الأمر

(*) وأصبح هذا الطوطم فيما بعد حمل يسكال فى الدين المسيحى ، وقيل إنه هو نفسه تخليد ذكرى موت المسيح .

(**) فى الأصل الإنجليزى الحادى عشر وهو خطأ مطبعى . (المترجم)

يستتبع انتقال الزوج إلى دار زوجته ، فقد كان عليه أن « يترك أباه وأمه وينضم إلى زوجته فى عشيرتها » ؛ لكن هذه العادة أخذت تزول شيئاً فشيئاً بعد تأسيس الملكية . وكانت أوامر يهوه إلى الزوجة هى : « ستكون رغبتك لزوجك ، وسيكون له الحكم عليك » .

ومع أن المرأة كانت من الوجهة الرسمية خاضعة للزوج ، فإنها كانت فى الواقع ذات كرامة وذات سلطان كبير ، واشتهرت فى تاريخ اليهود أسماء سيدات مثل سارة ، وراحيل ، ومريم ، وإستر ، وكانت دبورة إحدى قضاة إسرائيل(١٧٢) . وكانت النبية خلدة هى التى استشارها يوشيا فى أمر الكتاب الذى وجده الكهنة فى الهيكل(١٧٣) . وكانت الأم الولود تضمن لنفسها الطمأنينة والكرامة ، ذلك بأن هذه الأمة الصغيرة كانت تتوق إلى زيادة عددها ، لأنها تشعر كما تشعر اليوم فى فلسطين بما يتهددها من الخطر وسط الأقوام المحيطين بها . ومن أجل هذا كانت تعلى من شأن الأمومة ، وترى العزوبة خطيئة وجريمة ، وتجعل الزواج إجبارياً بعد سن العشرين ، لا تستثنى من ذلك الكهنة أنفسهم ، وتزدرى العذارى التى فى سن الزواج ، والنساء العاقرات ، وتنظر إلى الإجهاض وقتل الأطفال وغيرهما من وسائل تحديد النسل على أنها من أعمال الكفرة البغيضة التى تؤذى خياشيم الرب(١٧٤) : « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لى بنين وإلا فأنا أموت(١٧٥) » . وكانت الزوجة الكاملة هى التى لا تنقطع عن الكد فى بيتها وحوله ، ولا تفكر إلا فى زوجها وأطفالها . وفى الأصحاح الأخير من سفر الأمثال وصف للمرأة المثالية كما يراها الرجل :

« امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلى ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ، تطلب صوفا وكتاناً ، وتشتغل بيدين راضيتين ، هى كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد ،

وتقوم إذ الليل بعد ، وتعطى أكلا لأهل بيتها وفريضة لفتياتها ، تتأمل حقلا فتأخذه وبثمر يديها تغرس كرما ؛ تنطق حقويها بالقوة وتشدد ذراعيها ، تشعر أن تجارتها جيدة ، سراجها لا ينطفئ فى الليل ، تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة ، تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين ؛ لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لابسون حللا ، تعمل لنفسها موشيات ، لبسها البز وأرجوان ، زوجها معروف فى الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قصاناً وتبيعها ، وتعرض مناطق على الكنعانى ، العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتى ، تفتح فمها بالحكمة وفى لسانها سنة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطربونها ، ويقوم زوجها أيضاً فيمدحها ، بنات كثيرات عملن فضلا ، أما أنت ففقت عليهن جميعاً ، الحسن غش والجمال باطل ؛ أما المرأة المتقية الرب فهى تمدح ، أعطوها من ثمر يديها ، ولتمدحها أعمالها فى الأبواب(*) ».

والوصية السادسة مبدأ مثالى صعب المنال . وذلك أننا لا نرى فى كتاب ما ما نراه فى أسفار العهد القديم من حديث التقتيل والتدمير ، ففصوله كلها ما بين وصف لمذابح وتناسل لتعويض آثارها . لقد كان النزاع بين الأسباط ، والانقسامات الحزبية ، وعادة الأخذ بالثأر المتوارثة ، كل هذه كانت لا تبقى على فترات السلم المتقطعة المملة إلا قليلا . ولم يكن أنبياء إسرائيل من دعاة السلم رغم ما جاء فى بعض أقوالهم من تمجيد للمحاريث ومناجل التشذيب ، وكان الكهنة أنفسهم — إذا جاز لنا أن نحكم عليهم من خطبهم التى يُنطقون بها يهوه —

(*) هذه هى المرأة المثالية فى عين الرجل ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق إشعيا (٣ : ١٦ — ٢٣) فإن نساء أورشليم كن فى الواقع كنساء العالم كله يحببن الملابس الجميلة والزينة ويغرين الرجال بمطاردتهن : « من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق ، وغامزات بعيونهن ، وخاطرات فى مشيهن ، ويخشخشن بأرجلهن » الخ ؛ ولعل المؤرخين كانوا يخدعوننا على الدوام فيما يقولونه عن النساء !

مولعين بالحروب ولعهم بالمواعظ . ولقد قتل ثمانية من ملوك إسرائيل التسعة عشر(١٧٧) وكانت العادة المتبعة أن تدمر المدن التى يستولون عليها فى حروبهم ، وأن تقطع بحد السيف رقاب جميع الذكور من سكانها ، وأن تتلف الأرض حتى لا تصلح للزرع إلا بعد زمن طويل ، شأنهم فى هذا شأن الناس فى تلك الأيام(١٧٨) . ولعل أعداد القتلى الواردة فى أقوالهم كان يبالغ فيها كثيراً . فليس من المعقول مثلاً أن « يقتل بنو إسرائيل من الآراميين(*) مائة ألف رجل فى يوم واحد »(١٧٩) بغير آلات الحرب الحديثة . وكان اعتقادهم أنهم شعب الله المختار(١٨٠) سبباً فى ازدياد الكبرياء الطبيعى فى أمة تشعر بما لها من مواهب متفوقة ، كما كان سبباً فى تقوية ما لديهم من نزعة إلى اعتزال غيرهم من الشعوب من الوجهتين العقلية والروحية ، وفى حرمانهم من أن ينظروا إلى الأمور نظرة أممية كان أبناؤهم جديرين بأن يصلوا إليها ، لكنهم مع ذلك بلغوا درجة عظيمة من الفضائل المتصلة بصفاتهم هم أنفسهم ، وكان منشأ عنفهم هو ما كانوا يتصفون به من حيوية عارمة جامحة ، وكانت عزلتهم ناشئة من تقواهم ، كما كان ميلهم إلى الخصام والتدمر ناشئاً من حساسيتهم القوية التى أمكنتهم من إنتاج أعظم آداب الشرق الأدنى ؛ وكان كبرياؤهم العنصرى أقوى سند لشجاعتهم فى خلال قرون التعذيب الطوال ، ذلك أن الناس يكونون كما تضطرهم الظروف أن يكونوا .

والوصية السابعة تعترف بأن الزواج هو الأساس الذى تقوم عليه الأسرة ، كما تعترف الخامسة بأن الأسرة هى أساس المجتمع ، وهى تضفى على الزواج كل ما يستطيع الدين أن يضفى عليه من عون . ولا تذكر شيئاً عن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولكن ثمة أنظمة أخرى تحتم على الفتاة أن تثبت أنها عذراء

(*) فى الأصل الإنجليزى « من السوريين » ، ولكن الذى تذكره الآية أنهم من الآراميين . (المترجم)

فى يوم زواجها وإلا رجمت حتى تموت(١٨١) ولكن الزنى كان رغم هذا منتشراً بين اليهود ، ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة(١٨٢) ولما كان القانون فيما يلوح لم يحرم الاتصال بالعاهرات الأجنبيات ، فإن السوريات ، والموابيات والمدينيات وغيرهم من « النساء العزبات » انتشرن فى الطرق العامة ، حيث كن يعشن فى مواخير وخيام ، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة . ولما كان سليمان لا يتشدد كثيراً فى هذه الأمور ، فإنه قد تساهل فى تطبيق القانون الذى كان يحرم على تلك النساء السكنى فى أورشليم ، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه فى أيام المكابيين ماخوراً للفسق والفجور كما وصفه مصلح غضوب(١٨٣) .

ويلوح أن الحب كان له عندهم نصيب ، فقد « خدم يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها »(١٨٤) ، ولكن الحب لم يكن له إلا شأن قليل فى اختيار الأزواج . وكان هذا الزواج قبل نفى بنى إسرائيل من الأمور المدنية المحضة ، يعقده أبوا الزوجين أو يعقده الخطيب وأبو العروس وفى أسفار العهد القديم شواهد على زواج السبايا ؛ ويجيز يهوه الزواج من سبايا الحروب(١٨٥) . ولما نقص عدد النساء أوصى الكبار « بنى بنيامين قائلين امضوا واكمنوا فى الكروم ؛ وانظروا ، فإذا خرجت بنات شيلوه ليدرن فى الرقص فاخرجوا أنتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه واذهبوا إلى أرض بنيامين »(١٨٦) . ولكن هذه الخطة كانت من الخطط النادرة ، أما السُّنة المألوفة فكانت سنة الزواج بطريق الشراء ، فقد ابتاع يعقوب ليئة وراحيل بعمله . واشترى بُوعز راعوث اللطيفة شراء سافرا . وكان من أشد ما ندم عليه النبى هوشع أنه ابتاع زوجته بخمسين شاقلا(١٨٧) . وكان الاسم الذى يطلقه العبرانيون على الزوجة وهو « بولة(*) » يعنى « المملوكة(١٨٨) » . وكان

(*) لعل هذا المعنى ذو صلة بكلمة « بولة » العربية بمعنى بنت الرجل . (المترجم)

والد الزوجة يعطيها فى مقابل ما يتقاضاه ثمناً لها بائنة — وهو نظام يفيد أعظم فائدة فى تضييق الثغرة الفاصلة بين نضج الأبناء الجنسى ونضجهم الاقتصادى فى حضارة المدن ، وهى ثغرة مفككة للمجتمع .

وإذا كان الرجل ثريا أبيح له أن يتزوج بأكثر من واحدة ؛ وإذا كانت الزوجة عاقراً ، مثل سارة ، أشارت على زوجها بأن يتخذ له خليلة . وكان الهدف الذى ترمى إليه هذه السنن هو تكثير النسل ، وكان طبيعيا لديهم أن تقدم راحيل وليئة خادماتهما إلى يعقوب بعد أن ولدتا له كل ما تستطيعان أن تلدا من الأبناء ، لكى يلدن له هن أيضاً أبناء(١٨٨) . ولم يكن يسمح للمرأة بأن تظل عقيما ؛ ومن أجل ذلك فإن الأخ إذا مات أخوه كان يحتم عليه أن يتزوج أرملته مهما كان عدد زوجاته ، فإذا لم يكن للميت أخ فرض هذا الواجب على أقرب الأحياء من أسرته(١٨٩) . ولما كانت الملكية الفردية أساس النظام الاقتصادى اليهودى فقد كان لكل من الرجل والمرأة معيار خلقى خاص . فللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما المرأة فكانت تختص برجل واحد . وكان معنى الزنى عندهم اتصال رجل بامرأة ابتاعها رجل آخر بماله ، ومن أجل ذلك كان اتصاله بها اعتداء على قانون الملكية تعاقب عليه المرأة والرجل بالإعدام(١٩٠) . وكان الفسق محرماً على المرأة غير المتزوجة ، أما الرجل غير المتزوج فقد كان عمله هذا ذنباً يغتفر له(١٩١) . وكان الطلاق مباحاً للرجل ، ولكنه كان قبل أيام التلمود من أشق الأمور على المرأة(١٩٢) . ويلوح أن الزوج لم يسرف فى إساءة استعمال ماله من ميزة على المرأة فى هـــذه الناحية ، فهو يصور لنا أنه فى الجملة إنسان مخلص لزوجته وأبنائه ، غيور عليهم ، وكثيراً ما كان الزواج يثمر حباً وإن لم يكن الحب هو الذى يقرر الزواج . « وأخذ إسحق رفقة فصارت له زوجة وأحبها فتعزى إسحق بعد موت أمه »(١٩٣) . ولعل الحياة فى الأسرة لم تصل فى أى شعب آخر — إذا استثنينا شعوب الشرق الأدنى — إلى ذلك المستوى الراقى الذى وصلت إليه عند اليهود .

والوصية العاشرة تقدس الملكية الفردية(*) ، وكانت هى والدين والأسرة الأسس الثلاثة التى قام عليها المجتمع العبرى . وتكاد الملكية كلها تنحصر فى ملكية الأرض ، ذلك أن اليهود قبل أيام سليمان قلما كان لديهم شىء من الصناعات غير صناعتى الخزف والحديد . وحتى الزراعة نفسها لم ترق رقياً كبيراً ، وكانت الكثرة العظمى من الشعب منصرفة إلى تربية الضأن والماشية ، وزراعة الكروم والزيتون والتين . وكانت أغلب معيشتهم فى الخيام لا فى البيوت المبينة ، حتى لا يجدوا صعوبة فى انتجاع مراعى جديدة ، ولما نمت ثروتهم وزاد ما ينتجونه على حاجتهم بدءوا يتجرون ، وأخذت السلع اليهودية تروج فى دمشق وصور وصيدا وحول الهيكل نفسه بفضل ما اتصف به التجار اليهود من مهارة صبر على المشاق . وظلوا إلى ما قبل أيام الأسر لا يستخدمون نقودا ، وكان الذهب والفضة أساس التبادل عندهم وكانا يوزنان فى كل عملية تجارية . وقامت بينهم مصارف كثيرة العدد لتمويل التجارة والمشروعات الاقتصادية . ولم يكن غريباً أن يتخذ هؤلاء « المقرضون » ساحات الهيكل موضعاً لعملهم ، فقد كانت هذه عادة شائعة فى الشرق الأدنى ، ولا تزال باقية فى كثير من أقطاره إلى هذا اليوم(١٩٦) . وكان يهوه يطل من عليائه مغتبطاً بسلطان رجال المال المتزايد ، ومن أقواله فى هذا المعنى : « فتقرض أمماً كثيرة وأنت لا تقترض(١٩٧) » وهى فلسفة كريمة جمعت لليهود ثروة طائلة ، وإن لم يبد فى ذلك القرن أنها من وحى الدين .

وكان اليهود يتخذون أسرى الحروب والمذنبين عبيداً لهم ، وشأنهم فى هذا شأن غيرهم من أمم الشرق الأدنى ؛ ويستخدمون مئات الآلاف منهم فى قطع الأخشاب ونقل مواد البناء للمنشئات العامة كهيكل سليمان وقصره . ولكن السيد

(*) لقد كانت الأرض من الوجهة النظرية ملكا ليهوه(١٩٥) .

لم يكن له على عبيده حق الحياة والموت ، كما كان من حق العبد أن يمتلك المال ويبتاع به حريته(١٩٨) . وكان يباح بيع الرجال المدينين ليكونوا خدماً أرقّاء إذا عجزوا عن أداء ديونهم ، وكان فى وسعهم أن يبيعوا أبناءهم بدلا منهم . وقد بقيت هذه العادة إلى أيام المسيح(١٩٩) ، غير أن الصدقات السخية وما كان يقوم به الكهنة والأنبياء من حملات عنيفة على استغلال هؤلاء الأرقاء قد خففت فى بلاد اليهود من آثار هذه النظم التى كانت منتشرة فى بلاد الشرق الأدنى . وكان من القواعد الواردة فى شريعة موسى ؛ « ألا يغبن أحدكم أخاه(٢٠٠) » ، كما أنها كانت تطلب إليهم أن يطلقوا سراح الأرقاء من العبرانيين وأن يلغوا ما عليهم من الديون كل سبع سنين(٢٠١) ولما تبين أن هذا الأمر أكثر مما يطيقه سادة هؤلاء الأرقاء جاء القانون بسنة العيد الخمسينى ، فكان كل العبيد والمدينين يعتقون كل خمسين سنة : « وتقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق فى الأرض لجميع سكانها . تكون لهم يوبيلا وترجعون كل إلى مالكه وتعودون كل إلى عشيرته(٢٠٢) » .

وليس لدينا ما يدل على أن هذه الوصية الجميلة قد أطيعت ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإننا يجب أن نقر بالفضل للكهنة الذين لم يتركوا درساً فى الإحسان إلا علموه : « إن كان فيك فقير أحد من إخوتك . . فلا تقس قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير ، بل افتح يدك له ، وأقرضه مقدار ما يحتاج إليه » ، « لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة(٢٠٣) » ويجب أن تشمل عطلة السبت كل العاملين ، بل يجب أن تشمل الحيوانات نفسها فتترك ما عساه أن يكون على الأرض من النبات المقطوع والفاكهة الساقطة من الأشجار فى الحقول والبساتين يجمعها الفقراء لأنفسهم(٢٠٤) . ومع أن اليهود هم الذين كانوا مقصودين بهذه الصدقات فإن الفقير الذى عند الأبواب يجب أن يعامل هو

الآخر معاملة طيبة رحيمة ، وأن يؤوى الغريب ويطعم ويعامل معاملة كريمة . وكان اليهود يؤمرون فى كل حين بأن يذكروا أنهم هم أيضاً كانوا فى وقت من الأوقات لا مأوى لهم بل أنهم كانوا عبيداً أرقاء فى أرض غير أرضهم .

وكانت الوصية التاسعة تطلب أن يكون الشهود شرفاء أمناء إلى أقصى حد ، وبذلك جعلت الدين عماداً للشريعة اليهودية بقضها وقضيضها . لقد كان الشاهد يقسم اليمين فى حفل دينى ، ولم يكن يكتفى بأن يضع المقسم يده على عورة من يقسم له كما كانت العادة قديماً[٢٠٥] ، بل كان يطلب إليه الآن أن يشهد الله نفسه على صدقه ، وأن يُحَكِّمه فى أمره . وكان القانون ينص على أن يعاقب شاهد الزور بنفس العقاب الذى كان يراد توقيعه على المتهم بالاستناد إلى شهادته[٢٠٦] . لقد كانت شريعة إسرائيل كلها هى الشريعة الدينية وحدها ، وكان الكهنة هم القضاة والهياكل هى المحاكم ، وكان يحكم بالإعدام على من لا يخضعون لأحكام الكهنة[٢٠٧] . وكانت هناك حالات خاصة يترك الحكم فيها لله ، وذلك بأن يشرب المتهم ماء ساماً إذا كانت جريمته مشكوكاً فيها[٣٠٨] ، ولم تكن لديهم أداة لتنفيذ القانون سوى الأداة الدينية وحدها ؛ فكان تنفيذه يترك إلى ضمير المتهم وإلى سلطال الرأى العام ، وكانت بعض الجرائم الصغرى يكفر عنها بالاعتراف والفداء[٢٠٩] . وكانت جرائم القتل وخطف الآدميين ، وعبادة الأوثان ، والزنى ، وضرب أحد الوالدين أو سبهما ، وسرقة العبيد ، أو « مضاجعة بهيمة » ، يحكم فيها بالإعدام بأمر يهوه ، وأما قتل الخادم فلا يعاقب عليه بالإعدام[٢١٠] » ؛ كذلك كان الإعدام عقاباً على السحر : « لا تدع ساحرة تعيش[٢١١] » . وكان يرضى يهوه أن يقوم الأفراد أنفسهم بتنفيذ القانون فى حالة القتل : « ولى الدم يقتل القاتل ، حين يصادفه يقتله[٢١٢] » . على أنهم كانوا يفردون بعض المدن يستطيع

المجرم أن يفر إليها ، فإذا فعل كان على ولى الدم أن يؤجل ثأره(٢١٣) .

وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن المبدأ الذى كان يقوم عليه العقاب هو قانون القصاص : « وإن حصلت أذية تُعطى نفساً بنفس ، وعيناً بعين ، وسنا بسن ، ويداً بيد ، ورجلا برجل ، وكيا بكى ، وجرحاً بجرح ، ورضاً برض(٢١٤) » . وما من شك فى أن هذه المبادئ كانت مثلا عليا لم تتحقق كلها على الوجه الأكمل ، وإذا شئنا أن نقول كلمة عامة عن قانون اليهود الجنائى ، قلنا إن هذا الجزء من القانون لا يفضل قانون حمورابى ، وإن كان قد كُتب بعده بألف وخمسمائة سنة على الأقل . أما من حيث تنظيم القضاء نفسه فإن فيه رجوعاً كثيراً إلى الوراء ، لأنه يعود بهذا التنظيم إلى السيطرة الكهنوتية البدائية .

ويتضح لنا من الوصية العاشرة كيف كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها جزء من متاع الرجل : « لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ولاحماره ، ولا شيئا مما لقريبك(٢١٥) » . ولكنها مع هذا كانت تحوى مبادئ قيمة عظيمة ، لو تقيد الناس بها لنجا العالم من نصف ما فيه من قلق واضطراب . ومن أعجب الأمور أن أفضل الوصايا كلها لم تكن بين هذه الوصايا العشر ، وإن كانت جزءاً من « الشريعة » الموسوية . ونقصد بذلك ما ورد فى الآية الثامنة عشرة من الأصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين تائها بين « طائفة من القوانين المتكررة المختلفة الأنواع » ولا يزيد نصها على هذه العبارة : « تحب قريبك كنفسك » .

وقصارى القول أن الوصايا العشر شريعة سامية ، فيها من العيوب ما لا يزيد على عيوب العصر الذى وضعت فيه ، ولكن فيها من الفضائل ما لا يوجد فى غيرها من الشرائع . ومن واجبنا أن نذكر على الدوام أنها كانت قانوناً لا أكثر ، بل أن نذكر فوق هـذا أنها كانت : « طوبى كهنوتية(٢١٦) » ، ولم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية . وكانت ككل

القوانين تعظم فى عين أصحابها حين يخرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتدوا عليها ، ولكن أثرها فى سلوك أصحابها لم يكن يقل عن أثر معظم الشرائع القضائية أو الأخلاقية . وكان من أهم آثارها التى جعلت لليهود فى خلال تجوالهم الذى بدأ عقب وضعها بزمن قليل ، والذى دام ألفى عام ، « وطناً يحملونه معهم » ، كما سماه هين Heine فيما بعد ، ودولة روحية لا تراها العين ولا تلمسها اليد ، وضمت شملهم رغم تشتتهم وأبقت لهم كبرياءهم رغم هزائمهم ، وأوصلتهم خلال القرون الطوال إلى وقتنا هذا وهم شعب قوى يبدو لنا أنه لن يبيد أبدا .

الفصل السابع

أدب التوراة وفلسفتها

التاريخ — القصص — الشعر — المزامير — نشيد الأنشاد — الأمثال — أيوب — فكرة الخلود — تشاؤم سفر الجامعة — مجيء الإسكندر

ليس العهد القديم شريعة فحسب ؛ بل هو فوق ذلك تاريخ ، وشعر ، وفلسفة من الطراز الأول . وإذا ما أنقصنا من قيمة الكتاب ما فيه من أساطير بدائية ، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم ، وأقررنا أن ما فيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقة أو من القدم ما كان أجـــدادنا السابقون يفترضونه فيها ، إذا ما فعلنا هذا كله فإنا لا نجد فى الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب ، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل تلك الكتابات ؛ ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل ، كما يعتقد بعض العلماء(٢١٧) ، فى أثناء السبى أو بعـــده بقليل ، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشتت كسير ؛ ويحتفظوا بها على مدى القرون ؛ ولكن قصة شاؤل وداود وسليمان تفوق فى جمال مبناها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية فى الشرق الأدنى القديم . بل إن سفر التكوين نفسه — إذا استثنينا منه ما فيه من سلاسل الأنساب ، وقرأناه ونحن ندرك الهدف الذى ترمى إليه الأقاصيص — إن هـــذا السفر نفسه لهو قصة ممتعة عظيمة ، قُصّت علينا من غير حواش ولا زينة فى بساطة ووضوح وقوة . ولسنا نجد فيها تاريخاً فحسب ، بل نجد فيها نوعاً من فلسفة التاريخ . ذلك أنها أول ما دوّن من الجهود التى بذلها الإنسان ليؤلف من الحوادث الماضية التى لا عداد لها وحدة متناسقة بالبحث عما يسرى فيها من وحدة فى الغرض ، ومن مغزى ، ومن تتابع العلة والمعلول على نحو ما ، ومن إيضاح لحاضر

الأشياء ومستقبلها . ولقد بقيت فكرةُ التاريخ — كما تصورها الأنبياء والكهنة واضعو أسفار موسى الخمسة — ألفَّ عام بعد اليونان والرومان . وأصبحت آراء عالمية يعتنقها المفكرون الأوربيون من بوئثيوس Boëthnius إلى بوسويه Bossuet

ولاقصص الغرامية الساحرة الوارد ةفى التوراة وسط بين التاريخ والشعر ، وليس فى المنثور من الكتابة ما هو أدنى إلى الكمال من قصة راعوث ؛ ولا تقل عنها كثيراً قصة إسحق ورفقة ، ويعقوب وراحيل ، ويوسف وبنيامين ، وشمشون ودليلة ، وإستر ، ويهوديت ودانيال . ويبدأ الأدب الشعرى « بنشيد موسى » (سفر الخروج الفصل الخامس عشر) و « نشيد دبورة » (القضاة الفصل الخامس عشر) ويبلغ ذروته فى المزامير . وكانت ترانيم « التوبة » البابلية هى التى مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد ، ولعل أناشيد اليهود قد أخذت منها مادتها كما أخذت عنها صورتها . ويخيل إلينا أن قصيدة إخناتون الشمس كانت ذات أثر فى المزمور الخامس والخمسين بعد المائة . وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودى بزمن طويل ، ويغلب أن يكون ذلك فى القرن الثالث قبل المسيح(٣١٨) . على أن هذا البحث التاريخى كله لا يعنينا كما لا يعنينا اشتقاق اسم شيكسبير أو المصادر التى استمد منها مسرحياته ، إنما الذى يعنينا هو أن المزامير تحتل المكان الأول فى شعر العالم الغنائى . ولم يكن يقصد بها أن يطالعها الإنسان فى جلسة واحدة ، أو أن يطالعها مطالعة الناقد المدقق ؛ بل إن أجمل ما فيها أنها تصف لحظات من نشوة التقى والهيام الروحى والإيمان القوى المحرك للعواطف . ولكنها يفسدها علينا ما فيها من لعنات مريرة ، و « تأوهات » وشكايات مملة ، وملق لا ينتهى ليهوه الذى يصب الدخان صباً من خياشيمه والنار من فمه (المزمور الثامن) ، ويتوعد الأشرار بالحرق فى نار الجحيم (المزمور التاسع) : يتقبل الملق ويهدد « بقطع جميع الشفاه الملقة » (المزمور الثانى عشر) . والمزامير مليئة بالحماسة

الحربية البعيدة كل البعد عن الروح المسيحية ، ولكنها مع ذلك تسرى فيها روح الحجيج المجاهدين . على أن من المزامير ما يفيض رحمة وحناناً وما يعد مثلا فى الخضوع والتذلل : « إننا تراب نحن ... الإنسان مثل العشب أيامه ، كزهر الحقـــل كذلك يزهر ، لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون ولا يعرفه موضعه بعد » (المزموران ٢٩ ، ١٠٣) . ونحس فى هذه الأناشيد بأوزان الشعر الشرقى القديم ونكاد نسمع فيها أصوات المرنمين وهم يردون على المنشدين . وليس فى الشعر كله ما يفوقه فى تشبيهاته وتصويره ؛ وليس ثمة ما يضارعه فى قوة تعبيراته ووضوحها . ولهذه القصائد فى نفوسنا من الأثر ما يفوق أثر أية أغنية من أغانى الحب ، فهى تحرك أقسى العواطف وأكثر النفوس شكا ، لأنها تعبر فى صورة عاطفية قوية عما فى العقل الناضج من شوق إلى نوع من الكمال يهب له كل جهوده . وتقابلنا فى أماكن متفرقة من الترجمة الإنجليزية التى صدرت فى عهد الملك جيمس عبارات بليغة جرت على لسان جميع الناطقين باللغة الإنجليزية كقولهم : **Out of the Mouths of babes** (من أفواه الأطفال والرُّضَّع فى المزمور الثامن) ، **The apple the eye** (حدقة العين فى المزمور السابع عشر) ، **Trust not in princes** لا تتكلوا على الرؤساء ؟ — المزمور السادس والأربعون بعد المائة) . وفى الأصل العبرانى تشبيهات واستعارات لم تفقها تشبيهات واستعارات فى أية لغة من اللغات . انظر إلى قوله فى المزمور التاسع عشر ، إن الشمس المشرقة : « مثل العروس الخارج من حجلته يبتهج مثل الجبار للسباق » . ولا يسعنا إلا أن نتصور ما لهذه الأناشيد من جلال وجمال فى لغتها الأصلية الطنانة الرنانة(*) .

وإذا ما وضعنا إلى جانب هذه المزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما فى الحياة

(*) ولو أننا طلب إلينا أن نختار من هذه المزامير أحسنها لوقع اختيارنا فى أكبر ظننا على المزامير رقم ٢٣٨ ، ، ٥١ ، ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ . وبين المزمور الأخير وبين نشيد هوتمان **Whitman** « النشوء والارتباء » شبه عجيب(٢١٩) .

اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، لعل كُتَّاب العهد القديم — وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة — قد أخفوه عنا ، كما يكشف سفر الجامعة عن تشكك لا نتبينه فيما عنى الكتاب باختياره ونشره من أدب اليهود الأقدمين ؛ وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين . فقد تكون مجموعة من الأغانى البابلية الأصل ، تشيد بذكر إشتار وتموز ، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهلينية التى دخلت إلى بلاد اليهود مع الإسكندر الأكبر (لأن فى هـذه الأغانى ألفاظاً مأخوذة من اللغة اليونانية) ، أو تكون زهرة يهودية ترعرعت فى الإسكندرية وقطعتها نفس محررة من ضفاف النيل (وذلك لأن العاشقين يخاطب أحدهما الآخر بقوله أخى أو أختى كما يفعل المصريون الأقدمون) . ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى ولكنه سر ساحر جميل . ولسنا ندرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال إشعيا والخطباء :

صرة المر حبيبى لى بين ثدىّ يبيت
طاقة فاغية حبيبى لى فى كروم عين جدّى (Engadi)
ها أنت جميلة يا حبيبتى ، ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان
ها أنت جميلٌ يا حبيبى وحلو وسريرنا أخضر ...
أنا نرجس شارون سوسنة الأودية . .
أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة جداً ،
أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تيقظنّ
ولا تنبهنّ الحبيب حتى يشاء ..
حبيبى لى وأنا له الراعى بين السوسن

إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال ارجع وأشبه يا حبيبى الظبى
أو غُفر الأيائل على الجبال المشعَّبة . . .
تعال يا حبيبى لنخرج إلى الحقل ولنبت فى القرى
لنبكرنّ إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم ؟ هل تفتح القعال ؟ هل
نوّر الرمان ؟ هنالك أعطيك حبى(٢٢٠) .

هذا هو صوت الشباب ، أما الأمثال فصوت للشيوخ . إن الناس يتطلبون كل شىء من الحب والحياة ؛ وهم ينالون ما يتطلبون إلا قليلا ، ولكنهم يظنون أنهم لم ينالوا شيئاً ، وتلك هى المراحل الثلاث التى يتنقل فيها الإنسان المتشائم . وهكذا نرى هذا السليمان الأسطورى(*) يحذر الشباب من شر المرأة « لأنها طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء . . . أما الزانى بامرأة فعديم العقل . . . ثلاثة عجيبة فوق وأربعة لا أعرفها : طريق نسر فى السموات ، وطريق حية على صخر ، وطريق سفينة فى قلب البحر ، وطريق رجل بفتاة(٢٢١) » . وهو يتفق مع القديس بولس فى أن أفضل للإنسان أن يتزوج من أن يحترق ! « أفرح بامرأة شبابك ، الظبية المحبوبة ، والوعلة الزهية ، ليروك ثدياها فى كل وقت ، وبمحبتها اسكر دائماً . . . أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة(٢٢٢) » . بحقك هل هذه ألفاظ من كانت له سبعمائة زوجة ؟

ويلى الكسلُ الدنس فى البعد عن الحكمة : « اذهب إلى النملة أيها الكسلان . . . إلى متى تنام أيها الكسلان ؟(٢٢٣) » ؛

« أرأيت رجلا مجتهداً فى عمله ؟ — أمام الملوك يقف (٢٢٤) » . ولكن

(*) لا يقصد الكاتب أن سليمان شخص أسطورى ، فقد تحدث عنه قبل حديث من يعتقد أنه شخصية تاريخية ، بل يقصد كما يقول هو نفسه أن الأمثال ليست من وضع سليمان وإن كان بعضها قد قالها هو نفسه هو كتبت فيما بعد . إن على هذه الأمثال مسحة من الأدب المصرى والفلسفة اليونانية ، ولعلها نجمت فى القرن الثالث أو الثانى قبل الميلاد ، ولعل جامعها يهودى متأغرق من أهل الإسكندرية .

هذا الفيلسوف لا يطيق الإسراف فى الطمع : « المستعجل إلى الغنى لا يبرأ » ، و « راحة الجهال[٢٢٥] تبيدهم » والعمل هو الحكمة ، أما الكلام فحمق وسخف : « فى كل تعب منفعة ، وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر » . . . « الجاهل يظهر كل عبطه ، والحكيم يسكنه أخيراً » « ذو المعرفة يبقى كلامه وذو الفهم وقور الروح ، بل الأحمق إذا سكت يحسب حكيما ومن ضم شفتيه فهيما[٢٢٦] » .

ومن النصائح التى لا ينفك ذلك الحكيم يرددها حكمة تكاد تنطبق ألفاظها على وصف سقراط للفضيلة والحكمة ، تفوح بعطر مدارس الإسكندرية حيث كان علم اللاهوت العبرى يمتزج بالفلسفة اليونانية لتخرج لنا من مزيجهما العقلية الأوربية : « الفطنة ينبوع حياة لصاحبها ، وتأديب الحمق حماقة . . . طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة ، وريحها خير من الذهب الخالص ، هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها ، فى يمينها طول أيامك وفى يسارها الغنى والمجد ، طرقها طرق نعم ، وكل مسالكها سلام[٢٢٢] » .

وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ؛ ولعل ذلك السفر قد كتب فى أيام السبى ، ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلى(*) ويقول فيه كارليل وهو

(*) ويظن العلماء أن هذا السفر قد كتب فى القرن الخامس قبل الميلاد[٢٢٨] . ونصوصه أكثر تهويشا حتى من الكتب المقدسة فى أية أمة من الأمم القديمة . ويرفض چاسترو هذه النصوص كلها ما عدا الفصول ٣ — ٣١ ، ويرى أن ما بقى من الفصول تعديلات أدخلت عليها لتدعيمها ، وحتى الفصول التى يقبلها يظن أن فيها عبارات ليست منها قد أقحمت فيها إقحاما ، وأن بعض العبارات الأصلية قد أسيئت ترجمتها . من ذلك ما جاء فى الآية الخامسة من الفصل الثالث عشر : « هو ذا يقتلنى فهذا يعود إلى خلاصى » (الأصحاح ١٣ : ١٥) فهذه الآية تجب أن تترجم هكذا : « ولكنى لا أرتجف » أو « ولكنى لا أرجو شيئاً »[٢٢٩] [ونص الآيات كاملا هو : « هو ذا يقتلنى ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أزكى طريقى قدامه ، فهذا يعود إلى خلاصى » (المترجم)]

ويرى كلن وغيره فى هذا السفر ما يشبه إحدى المآسى اليونانية التى كتبت على نمط مآسى يوريپديز[٢٣٠] . والفصول المحصورة بين ٣ ، ٤١ مصوغة على أوازن الشعر العبرى .

من أشد الناس تحمساً له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم . . . فهو كتاب نبيل ؛ وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التى لا آخر لها — مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض . . . واعتقادى أن لا شيء فى التوراة أو فى غير التوراة يضارعه فى قيمته الأدبية[٢٣٠] » وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا . ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها فى الديانة اليهودية القديمة[٢٣١] فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها فى هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيراً ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون ، وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثرون ثروة[٢٣٢] » ؟ ولِمَ يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار ؟[٢٣٣] ؛ وها هوذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأمثلة وهو أكثر ممن سبقه عزماً وثباتاً ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزاً لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (فى فترات متقطعة) كما كان يعبده أيوب ؛ وكانت بابل تجحده وتكفر به ؛ ومع ذلك فقد ازدهرت بابل ، وتمرغ بنو إسرائيل فى الوحل ، ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا . فماذا يقول الإنسان فى هذا الإله ؟

وجاء فى مقدمة هذا السفر ، لعل كاتباً أريباً قد دسها فيه ليمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه رجل محظوظ ؛ فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألواناً من المصائب على رأس أيوب . ويظل البطل وقتاً ما صابراً « صبر أيوب » ولكن صبره هـــذا يفارقه فى آخر الأمر ، ويفكر فى الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . ويصر صوفر — وقد خرج ليستمتع بآلام صديقه — على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح فى هذه الدنيا نفسها ؛ ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتداً :

« إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثلكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه ! . . . خيام المُخَرَّبين مستريحة والذين يغيظون الله مطمئنون ؛ الذين يأتون بإلههم فى يدهم . . . هذا كله رأته عينى ، سمعته أذنى وفطنت به . . . أما أنتم فلفقو كذب أطباء بطالون كلكم . ليتكم تصمتون صمتاً ، يكون ذلك لكم حكمة(٢٣٤) » .

ثم يفكر فى قصر الحياة وطول الموت فيقول :

« الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً ، يخرج كالزهر ثم ينحسم ، ويبرح كالظل ولا يقف . . . . لأن للشجرة رجاء إن قطعت تخلف ولا تعدم حرا عيبها . . . أما الرجل فيموت ويبلى ؛ الإنسان يسلم الروح فأين هو ؟ قد تنفد المياه من البحر ، والنهر ينشف ويجف ، والإنسان يضطجع ولا يقوم . . . إن مات رجل أفيحيا ! »(٢٣٥) .

ويظل الجدل قائماً بشدة ، ويزداد شك أيوب فى ربه ، حتى يدعوه خصيمه ، ويتمنى أن يملك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على نمط فلسفة ليبنتز Leibnitz وأقواله فى العدالة الإلهية . وتوحى العبارة التى جاءت فى ختام هذا الفصل « تمت أقوال أيوب » — بأن هذا كان فى الأصل ختام حديث يمثل كما يمثل سفر الجامعة آراء أقلية جاحدة بين اليهود(*) . ولكن فيلسوفاً آخر — إليهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح فى مائة وخمس وستين آية عدالة الله فى خلقه . وأخيراً يُسمع صوت من بين السحاب يتحدث حديثاً هو أجل ما فى التوراة كلها .

(*) يقول رينان وهو الفيلسوف المتشكك : « إن المتشكك لا يكتب إلا قليلا ، ثم إن كتاباته نفسها كثيرة التعرض للضياع . ولما كانت مصاير اليهود مرتبطة كل الارتباط بالدين فقد كان لابد من التضحية بالقسم الدنيوى من أدبهم »(٢٣٦) . وإن فى تكرار هذه العبارة : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله » فى المزمورين (١٤ : ١ ، ٥٣ : ١) ليدل على أن هؤلاء الجهال كانوا من الكثرة بين بنى إسرائيل بحيث يثيرون بعض المتاعب . ويلوح أن ثمة إشارة إلى هذه الأقلية فى صفنيا ١ : ١٢ .

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

« من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة . اشدد الآن حقويك كرجل فإنى أسألك فتعلمنى . أين كنت حين أسستُ الأرض . أخبر إن كان عندك فهم من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطماراً ؟ على أى شىء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها ، عند ما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم ، إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وضربتُ عليه حدى ، وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك ؟ هل فى أيامك أمرت الصبح ؟ هل عرفت الفجر موضعه ؟ . . . هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ هل أدركت عرض الأرض ؟ أخبر إن عرفته كله ؟ . . . أدخلت إلى خزائن الثلج أم أبصرت مخازن البرد ! . . . هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك رُبُط الجبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض ؟ ... من وضع فى الضحاء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة ؟

« هل يخاصم القــديرَ موبخهُ ، أم المحاج الله يجاوبه ؟ أسألك فتعلمنى (٢٣٧) » .

ويذل أيوب نفسه لهول ما يرى ؛ ويرضى يهوه بهذا فيعفو عنه ، ويقبل تضحيته ؛ وتتوعد أصدقاء أيوب لما نطقوا به من حجج واهية(٢٣٨) ، ويهب أيوبَ نفسَه أربعة عشر ألفاً من الغنم ، وستة آلاف من الإبل وألف فدان من الثيران ، وألف أتان ، وسبعة بنين ، وثلاث بنات ، وعاش بعد هذا مائة عام وأربعين سنة . وتلك خاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ؛ لأن أيوب يحصل على كل شىء إلا جواب أسئلته ؛ فالمشكلة تظل باقية ؛ وسوف تكون لها آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما بعد . ففى أيام دانيال (حوالى ١٦٧ ق . م) سكت يهود عن هذه المشكلة وعدوها من المشاكل التى شرحها

بعبارات تدركها العقول فى هذه الحياة الدنيوية ، ولا يستطاع الإجابة عنها — كما يقول دانيال وأخنوخ و (كانت Kant) إلا إذا آمن الإنسان بحياة بعد الممات ، ترفع فيها كل المظالم ، وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسىء ، ويثاب المحسن أجزل الثواب . وكانت هذه إحدى الأفكار المختلفة التى سرت فى المسيحية ، وكانت من أكبر الأسباب انتصارها على غيرها من الأديان المعاصرة لها .

ويجيب سفر الجامعة عن هذه المسألة جواباً متشائماً ، فيقول إن الهناءة والشقاء فى هذا العالم لا شأن لهما بالفضيلة والرذيلة(*) .

« قد رأيت الكل فى أيام بُطْلى ، قد يكون بارٌّ يبيد فى برّه ، وقد يكون شرير يطول فى شره . . . ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس : فهو ذا دموع المظلومين ولا مقر لهم ، ومن يد ظالميهم قهر . . . إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل فى البلاد فلا ترتع من الأمر . . . لأن فوق العالى عالياً(٢٤١) .

وليست الفضيلة والرذيلة هما اللتين تقوم عليهما سعادة الإنسان وشقاؤه ، وإنما تقوم السعادة والشقاء على المصادفة العمياء : « فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعى ليس للخفيف ، ولا الحرب للأقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأن الوقت والفُرَص يلاقيانهم كافة(٢٤٢) » . وحتى الثروة نفسها لا بقاء لها ولا تسعد صاحبها طويلا : « من يحب الفضة لا يشبع من الفضة ، ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل . هذا أيضاً باطل . . . نوم المشتغل حلو إن أكل قليلا أو كثيراً . ووفر الغنى لا يريحه حتى ينام(٢٤٣) » . ويذكر الكاتب أهله فيجمع مبادئ مالتس Malthus فى سطر واحد : « إذا كثرت الخيرات كثر الذين يأكلونها(٢٤٤) » . كذلك لا يخفف من آلامه ما يقال

(*) لا يعرف مؤلف هذا السفر ولا وقت تأليفه . ويرجعه سارتن إلى الفترة الواقعة ما بين عامى ٢٥٠ ، ١٦٨ ق . م(٢٣٩) . ويطلق المؤلف نفسه اسمين أدبيين مستعارين يخلط بينهما وهما « كحيلة » و « ابن داود ملك أورشليم » أى سليمان(٢٤٠) .

له عن ماض ذهبي أومستقبل هنيء ، فهو يرى أن الأمور جميعها كانت فى ماضيها كما هى فى حاضرها وكما ستكون فى مستقبلها على الدوام : « لاتقل لماذا كانت الأيام الأولى خيراً من هذه ؟ لأنه ليس عن حكمة تسأل عن هذا(٢٤٥) » ، ومن واجب الإنسان أن يعنى باختيار مؤرخيه : « ما كان فهو ما يكون ؛ والذى صُنع فهو الذى يُصنع . فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شيء يقال له انظر ، هذا جديد ، فهو منذ زمان كان فى الدهور التى قبلنا(٢٤٦) » . وهو يظن أن الرقى وهم باطل فالمدنيات القديمة قد نسيت وستنسى أيضاً المدنيات القائمة(٢٤٧) .

وهو يرى أن الحياة بوجه عام عمل محزن ، وأن لا ضير من التخلص منها ، فهى حركة دائرية لا غاية لها ولا هدف ولا نتيجة باقية ، تنتهى حيث تبدأ ؛ وهى صراع عقيم باطل ليس فيه شيء محقق إلا الهزيمة :

« باطل الأباطيل قال الجامعة ؛ باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ، دور يمضى ودور يجيء ، والأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق ، والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال ، تذهب دائرة دوراناً ، وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذى جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة . . . فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد ، الذى لم ير العمل الردىء الذى عمل تحت الشمس . . . الصيت خير من الدهن الطيب ، ويوم الممات خير من يوم الولادة(٢٤٨) » .

وهو يقضى بعض الوقت يبحث عن حل لمأزق الحياة فى الانغماس فى الملذات . « فمدحت الفَرَح لأنه ليس للإنسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح » . ولكن « هذا أيضاً باطل » . والصعوبة التى تواجهنا فى مستراتنا هى المرأة ، ويلوح أن الواعظ قد لاقى منها شراً لم يستطع نسيانه . « رجلا واحداً

بين ألف وجدت ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد . . . فوجدت أمر من الموت المرأة التى هى شباك ، وقلبها أشراك ويداها قيود ، الصالح قدام الله ينجو منها(٢٥١) » . وهو يختم استطراده فى دنيا الفلسفة الغامضة بالعودة إلى نصيحة سليمان وقنتير ، وعلى النصيحة التى لم يعمل بها كلاهما : « التذ عيشاً مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطلك التى أعطاك إياها تحت الشمس(٢٥٢) » .

وحتى الحكمة نفسها مسألة مشكوك فيها ، فهو يكيل لها المدح جزافاً ، ولكنه يظن أن العلم إذا لم يكن بالقدر القليل كان بالغ الخطورة ، فهو يقول فى غير حذر ، « لعمل كتب كثيرة لا نهاية ، والدرس الكثير تعب للجسد(٢٥٣) » . وفى رأيه أنه قد يكون من الحكمة أن يسعى الإنسان للحكمة لو أن الله قد جعلها تثمر مالا أكثر مما تثمره فعلا : « الحكمة صالحة مثل الميراث بل أفضل لناظرى الشمس »(*) . فإذا لم يصحبها المال كانت شركا يقضى على طلابها(٢٥٤) . (إن الحكمة شبيهة بيهوه الذى قال لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش(**)(٢٥٥) ») . والحكيم يموت آخر الأمر كما يموت الأبله وكلاهما ينتهى إلى جيفة نتنة .

ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات هو عناء ردىء جعلها الله لبنى البشر ليعنُوا فيه . رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح . . . أنا ناجيت قلبى قائلا ها أنذا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلى على أورشليم ، وقد رأى قلبى كثيراً من الحكمة والمعرفة ؛ ووجهت قلبى لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل :

(*) هذا هو النص فى الترجمة العربية للكتاب المقدس ، ولكن معنى النص الإنجليزى الذى أورده المؤلف : « الحكمة صالحة مع الميراث » . (المترجم)

(**) " رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى " قرآن كريم .

فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح ، لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذى يزيد علما يزيد حزناً(٢٥٦) »

ولو أنه كان من مبادئ هذا الدين أن الرجل العادل يستطيع أن يتطلع إلى شىء من السعادة بعد الموت لكان فى مقدوره أن يتحمل سهام مصائب الدهر وقلبه عامر بالأمل والشجاعة ؛ ولكن كاتب سفر الجامعة « يحنس » بأن هذا أيضاً وهم باطل ، فالإنسان حيوان يموت كما يموت غيره من الحيوانات :

« لأن ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة ، وحادثة واحدة لهم ، موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة للكل ، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل . يذهب كلاهما إلى مكان واحد ؛ كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما » . . فرأيت أنه لا شىء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه ، لأنه من يأتى به ليرى ما سيكون بعده ؟ . . . كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها(٢٥٧) » .

ألا ما أغرب هذا تعليقاً على الحكمة التى يسبِّح بحمدها سفر الأمثال ! ولا شك فى أن هذه الأقوال إنما تعبر عن الحضارة التى بلغت آخر مراحلها ، فلقد نضب معين شباب إسرائيل فى الكفاح المرير الذى قام بينها وبين الإمبراطوريات المحيطة بها ، والتى لم ينقذها منها يهوه الذى كانت تعتقد على معونته ، فلما تأزمت أمورها وافتقرت وتشتتت رفعت إلى السماء فى آدابها هذا الصوت وهو أشد الأصوات مرارة لتعبر به عن أعمق الشكوك التى طافت فى يوم من الأيام بالنفس البشرية .

نعم إن أورشليم قد أعيد بناؤها ، ولكنها لم تعد لتكون حصناً لإله لا يقهر ، بل عادت لتكون مدينة تخضع للفرس حيناً ولليونان حيناً آخر . فقد وقف الإسكندر الشاب على أبوابها فى عام ٣٣٤ ق . م ، وطلب إلى تلك العاصمة أن

تستسلم له . وأبى الكاهن الأكبر فى أول الأمر أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه صدع بالأمر فى صباح اليوم الثانى على أثر حلم رآه فى نومه . ، فأمر الكهنة أن يرتدوا من ملابسهم أعظمها روعة وأشدها وقعاً فى النفوس ، كما أمر الأهلين أن يلبسوا ثيابا بيضاً لا شية فيها ، ثم سار على رأس الشعب إلى خارج أبواب المدينة فى هدوء وسلام ليعرضوا الصلح على الغازين . وانحنى الإسكندر تعظيما للكاهن الأكبر وأظهر إعجابه بدين إسرائيل وبإلههم وتقبل منهم أورشليم(٢٥٨) .

على أن هذا لم يكن آخر حياة بلاد اليهود ، بل كان هو الفصل الأول من هذه المسرحية العجيبة التى تمتد فصولها المختلفة طوال أربعين قرناً من الزمان ، والتى تدور حوادث فصلها الثانى حول المسيح ، وحوادث الفصل الثالث حول أحاسوروس . واليوم يمثل من هذه المسرحية فصل آخر ولكنه ليس آخر فصولها . لقد خربت أورشليم وأعيد بناؤها ، ثم خربت وأعيد بناؤها من جديد .